

قضايا تفسيرية في كتابات
الدكتور محمد عبده يمانى
رحمه الله



إعداد

د. إبراهيم محمد إبراهيم حسنين

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق - جامعة الأزهر

الجزء الثالث



**قضايا تفسيرية
في كتابات الدكتور محمد عبده يماني
رحمه الله**

(الجزء الثالث)

إعداد

د. إبراهيم محمد إبراهيم حسانين

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق جامعة الأزهر



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق
وسيد العالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد أمرنا الله تعالى بتلاوة القرآن وحث على تدبره واستخراج
هداياته، قال الله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته
وليتذكروا الألباب) [ص: ٢٩]، فشرع العلماء بالبحث والنظر في
الآيات مستخرجين منها الدواء لأمراض المجتمع والعلاج الناجع
لمشكلاته على مختلف العصور، فامتدت صلتهم بكتاب الله دراسة
وتدبرا، ومن هؤلاء العلماء الكبار في العصر الحديث الدكتور محمد
عبده يماني رحمه الله، وزير الثقافة والإعلام السعودي السابق،
(ولد ١٩٤٠ - وتوفي ٨ نوفمبر ٢٠١٠م)، وهو من الشخصيات
الإسلامية الناشطة في الحقل الدعوي، كان من المهتمين بقضية
تبسيط وتيسير الدين لأبناء المسلمين وبالأخص السيرة النبوية،
واهتم بمعالجة المسائل المختلفة من منظور قرآني ونبوي، فيهتم
بالرجوع إلى كتب التفسير والسنة والسيرة، وقد أعد الدكتور محمد
عبده يماني خمسا وثلاثين مؤلفاً - بعضها باللغة الإنجليزية - تناول
من خلالها مواضيع علمية ودينية وثقافية مختلفة، وفي ثناياها
تعرض لآيات القرآن الكريم مبرزاً ما فيها من علاج لمشكلات وقضايا
عاشها وأعمل عقله للوصول لعلاجها حريصاً على أن يأخذ بأيدي
الأمة بجميع أطرافها لينهلوا من معين هذا الكتاب الذي لا تنفد

خزائنه، فكان فتح الله عليه ومدده ومعونته له، ولم لا والقرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم.

"إن ما يواجهه المسلمون في هذا العصر من مشكلات وتحديات ومثاهات توجب إعادة النظر في كثير من المسائل على ضوء القرآن الكريم وعلى أساس علمي يخاطب عقول الناس".

"إن شباب اليوم يريد تفسيراً لما جد في حياتهم المعاصرة، لأنهم يواجهون نوعاً جديداً من المشكلات المعقدة، ولا يتجرأ أن يسأل عنها خشية أن يتهم بالتحلل والفسق والفجور وعظائم الأمور، ولذلك فهو يصمت ويكبت جماح نفسه وعواطفه، وفي ذلك خطر كبير على إسلام مثل هؤلاء الشباب" (١).

من هنا جاءت فكرة استقراء مؤلفات المرحوم د. محمد عبده يماني واستخراج الموضوعات القرآنية التي تناولها في كتاباته والربط بينها لتخرج في ثوب قشيب، بهدف إبراز جهوده القرآنية، على أمل أن نبرز للقارئ الكريم صورة حية لهذا النموذج الذي عاش في خدمة الإسلام وكتابه العظيم إلى أن خرجت روحه إلى بارئها وهو يحرص على نشره وتعليمه.

وهذا هو الجزء الثالث من هذا الكتاب يرى فيه القارئ نظرة عميقة للدكتور محمد عبده يماني في تناوله للموضوعات القرآنية، وقد سبقه جزءان.

(١) المعادلة الحرجة في حياة الأمة الإسلامية د. محمد عبده يماني ص ٤٥

تناول الجزء الأول موضوعات مختلفة متعلقة بقضايا مجتمعية وتصحيح المفاهيم ومقومات نهضة الإنسان، بالإضافة إلى صور من الاتجاهات المنحرفة في التفسير.

وتناول الجزء الثاني عرض لفضيلته لبعض من قصص الأنبياء كآدم وإدريس وإبراهيم وعيسى عليهم السلام، أبرز فيه أهم ما اشتملت عليه القصة، واستخرج ما فيها من هدايات، ورد على الشبهات المثارة حولهم، قاصدا الذب عن جنابهم من المفاهيم المغلوطة والأفكار الهدامة التي يسعى البعض لنشر أفكارهم من خلال التفسيرات الخاطئة للنصوص والروايات الإسرائيلية، فكانت كتاباته - رحمه الله - تحصينا للشباب، وصيانة لهم ولأسرهم وللمجتمع وللوطن كله، لذا حرص - رحمه الله - على فحص مصادر الأفكار الهدامة ومناقشة وسائل التحصن منها.

أسأل الله تعالى لفضيلته رحمة واسعة، ولنا التوفيق والسداد، فهو الهادي والموفق لكل خير.

د. إبراهيم محمد إبراهيم حسانين
كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق
جامعة الأزهر

الفصل الأول

نسمات قرآنية للنبي خير البرية

المبحث الأول

رسول الله ﷺ بين الأصول الطاهرة والأرحام الزاكية

شاءت إرادة الله تعالى أن يكون رسوله محمد ﷺ بشرًا من بني آدم، اختاره الله من أطهر الأنساب، وأشرف السلالات، وأنقى الأصلاب، وهو ﷺ يعتز بنفسه ونسبه فيقول: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» (١)، ويروي أن ﷺ صعد المنبر فقال للناس: «مَنْ أَنَا؟» قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ ثُمَّ فَرَّقَهُمْ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ الْفِرْقَتَيْنِ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا» (٢)، وثبت في الصحيح قوله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ» (٣)، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يَلْتَقِ أَبَوَايَ قَطُّ عَلَى سِفَاحٍ، لَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَنْقُلْنِي مِنَ الْأَصْلَابِ الْحَسَنَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ مُصَفِّي مُهَدِّبًا لَا تَتَشَعَّبُ شُعْبَتَانِ إِلَّا كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا» (٤).

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (١٧٨٢/٤) برقم (٢٢٧٦).

(٢) مسند أحمد، مسند بني هاشم، حديث العباس بن عبد المطلب (٣٧٩/٢) برقم (١٧٨٩)، قال محققه: إسناده صحيح.

(٣) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ (١٤/٦) برقم (٣٦١٥).

(٤) الشريعة للأجري، كتاب الإيمان باب ذكر قول الله عز وجل وتقلبك في الساجدين (٣، ١٤١٩) برقم (٩٦٠).

وعلى ذلك اختار الله رسوله ﷺ من أطهر الأنساب، وأنقى الأصلاب، وأطهر الأرحام، انتقل من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء حتى استقر في بطن أمه آمنة بنت وهب.

وعن الأصول الزاكية لحبيبنا ﷺ يقول د. محمد عبده يماني:

"أكرمنا الله بالإسلام، وبعث إلينا خير الأنام سيدنا محمد ﷺ، الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين. وقد جعله الله سبحانه قدوة، وأسوة، ومعلما، وهاديا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، قد اصطفاه الله من صلب آدم ﷺ ولم يزل ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزاقيات حتى ولد من آمنة وعبد الله، فخير الآباء آباؤه، وخير الأمهات أمهاته، وجده إسماعيل فهو عربي، وجده من قريش فهو قرشي، فهو من خير فروع العرب، من خير فروع قريش، فهو خيرة من خيرة" (١).

(١) أجداد النبي د. محمد عبده يماني (ص ٩).

المبحث الثاني

تفضيل النبي محمد ﷺ على سائر الخلق ودلائل ذلك

أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض ، وعلى أن سيدنا محمدا ﷺ أفضل من جميعهم.

وقد تعرض د. محمد عبده يماني لمسألة أفضلية الرسول ﷺ على سائر الخلق حتى الأنبياء والمرسلون، فقال:

"جاء النبي ﷺ مثل سائر البشر في خلقه وولادته وحياته ومعاشه ومماته، وإن كان البشر كلهم، والأنبياء جميعهم دونه في المنزلة عند الله تعالى وعند ملائكته، وعند أنبيائه وأوليائه وعباده المؤمنين أجمعين، وقد جاءت النصوص بذلك في الكتاب والسنة، فمن الكتاب: أخذ الله العهد على أنبيائه إن أدركوا بعثته أن يؤمنوا به، وذكره في التوراة والإنجيل، وذكر علاماته وآياته، وذكر سمات أصحابه، ووعد الله تعالى له بأن يعطيه يوم القيامة حتى يرضى، ومواساة الله تعالى له فيما يواجهه من الصد والإعراض والأذى، ومن السنة الشريفة: قوله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم، آدم ومن بعده تحت لوائي يوم القيامة)" (١).

ومن دلائل أفضلية النبي ﷺ على سائر الخلق:

(١) لماذا لم يعبد رسول الله د. محمد عبده يماني (٦٦-٦٧).

أولاً: قوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [الأنبياء: ١٠٧] فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين.

ثانياً: قوله تعالى: (ورفعنا لك ذكرك) [الشرح: ٤]، قيل فيه: لأنه قرن ذكر محمد بذكره في كلمة الشهادة وفي الأذان وفي التشهد ، ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك.

ثالثاً: أنه تعالى قرن طاعته بطاعته، فقال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) [النساء: ٨٠]، وبيعته ببيعته فقال: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) [الفتح: ١٠]، وعزته بعزته فقال: (ولله العزة ولرسوله) [المنافقون: ٨]، ورضاه برضاه فقال: (والله ورسوله أحق أن يرضوه) [التوبة: ٦٢]، وإجابته بإجابته فقال: (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول) [الأنفال: ٢٤].

رابعاً: أن معجزة رسولنا ﷺ أفضل من معجزات سائر الأنبياء فوجب أن يكون رسولنا أفضل من سائر الأنبياء.

خامساً: إن الله تعالى جعل معجزة النبي ﷺ باقية إلى آخر الدهر، ومعجزات سائر الأنبياء فانية منقضية.

سائياً: أنه ﷺ بعث إلى كل الخلق، وذلك يقتضي أن تكون مشقته أكثر، فوجب أن يكون أفضل، يقول تعالى: (وما أرسلناك إلا كافة للناس) [سبأ: ٢٨]

سابعاً: أنه ﷺ خاتم الرسل فوجب أن يكون أفضل، لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح في المعقول.

ثامنا: عناية الله برسوله ورعايته له وحفاوته به، يقول تعالى:
 (الضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
 لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا
 فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ
 فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) [سورة
 الضحى]، وقال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا
 غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
 وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُتَوَكِّلِينَ) [آل عمران: ١٥٩]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص
 رضي الله عنهما قال: (لم يكن النبي - ﷺ - فاحشاً ولا مُتَفَحِشاً وكان
 يقول: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنِكُمْ أَخْلَاقًا).

المبحث الثالث

الصلاة على النبي ﷺ وفضلها

"الحمد لله الذي أكرمنا بنعمة الإسلام.. وأرسل إلينا خير الأنام، أحبه، وأمرنا بحبه، وجعل حبه من أركان الإيمان، حتى إن المسلم لا يكون مؤمناً كامل الإيمان إلا بذلك الحب الكامل له، وجعل الصلاة مستمرة متجددة على سيدنا محمد ﷺ حيث قال: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) [الأحزاب: ٥٦]، وصيغة المضارع (يصلون على النبي) تقتضي التجديد والاستمرار، وجعل الله عز وجل ثواب الصلاة مضاعفاً لنا حيث جعل من يصلي منا على رسول الله ﷺ صلاة واحدة يصلي الله بها عليه عشراً، أي يرحمه عشر رحمات، ورحمة واحدة تكفي الإنسان من ولادته إلى وفاته.

وأيضاً صلاة الله عز وجل نعمة كبرى علينا، لأنها تخرجنا من الظلمات إلى النور، قال تعالى: (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور)، ولكن كيف نصلي على رسول الله ﷺ؟ ومتى نصلي على رسول الله ﷺ؟ (١).

"وقد سبق صحابة رسول الله ﷺ إلى هذا السؤال، فكانوا يسألونه كيف يصلون عليه؟ فأرشدهم إلى ذلك، وعلمنا كيف نصلي عليه، فهذا أبو مسعود البديري يقول: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عباد، فقال له بشير بن سعد: يا رسول الله، لقد

(١) كيف نصلي على رسول الله (٨-٩).

أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، فقال ﷺ قولوا: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما علمتم).

وكذلك من حديث ابن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي ﷺ خرج علينا، فقلنا يا رسول الله: قد علمتنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)، وفي مسلم أيضاً قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: (اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد)

وقد أشار ابن أبي حجلة إلى الحكمة من ذلك فقال: الحكمة في تعليمه الأمة صيغة: اللهم صل على محمد، أنا لما أمرنا بالصلاة عليه ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك أحلناه عليه، لأنه أعلم بما يليق به وهو قوله: لا أحصي ثناء عليك، وسبق له أبو اليمن ابن عساكر والله أعلم، إذا عرفت ذلك كله فلتكن صلاتك عليه، كما أمرك بالصلاة عليه فبذلك تعظم حظوتك لديه، وعليك بالإكثار منها، والمواظبة عليها والجمع بين الروايات فيها، فإن الإكثار من الصلاة عليه من علامات المحبة له، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره، وقد

نفى الإيمان عن لا يحبه أكثر من والده وولده والناس أجمعين.
 روى عن البخاري في صحيحه: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب
 إليه من والده وولده والناس أجمعين).

سبحان الله عز وجل الذي جعل صلاتنا على رسوله تكسبنا
 الحسنات وتحط عنا الخطيئات وترفع لنا الدرجات. وهذا أنس صلى الله عليه وسلم
 يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرفوعاً عنه: (من صلى علي صلاة واحدة
 صلى الله عليه عشر صلوات ويحط عنه بها عشر خطيئات ورفعه
 بها عشر درجات) " (١).

"وإني أبشر من يكثر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بحسن الخاتمة،
 ومعنى هذا: أنه يوفق للخيرات، ويحفظ من المخالفات، ويكون
 مرحوماً من الله تعالى في جميع الأوقات" (٢).

(١) بأبي أنت وأمي يا رسول الله د. محمد عبده يماني (ص ١٠١).
 (٢) كيف نصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم د. محمد عبده يماني (ص ٥١).

المبحث الرابع

الوسائل النبوية في كسب قلوب البرية

كسب رسول الله ﷺ حب الناس بأخلاقه، واجتذب قلوبهم بنبل تصرفاته، ونقل أعدى أعدائه من دياجير الكفر وطغيانه إلى رحاب الإيمان الفسيحة بتسامحه وكريم أفعاله.

حول الأخلاق المحمدية وكمالها، وسائل النبي ﷺ في كسب القلوب يحدثنا د. محمد عبده يماني، فيقول:

"خلق الله سبحانه وتعالى مجداً كاملاً، وجعله مثلاً أعلى المكارم الأخلاق وأدبه وأحسن تأديبه وجعله رحمة للعالمين. فكان الرحمة المهداة إلى الناس جميعاً والهدى والنور.. يدعوهم إلى العدل والإحسان وإبناء ذي القربى، والحلم والتواضع والجود والحياء، والصدق والأمانة، والرفق بالضعفاء والعفو والعفة، والوفاء بالوعد ورعاية العهد، ويعلمهم ضبط النفس وكظم الغيظ، والامتناع عن الغلظة والفظاظة، وتطهير القلب من الأحقاد، والإعراض عن الجاهلية وترك المهاترة والمجادلة.

وكان مشرق الوجه، دائم البشر، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح، ولنسمع قول الله سبحانه وتعالى في آل عمران: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) [آل عمران: ١٥٩].

ولقد كسب رسول الله ﷺ حب الناس بأخلاقه، واجتذب قلوبهم بنبل تصرفاته، ونقل أعدى أعدائه من دياجير الكفر وطغيانه إلى رحاب الإيمان الفسيحة بتسامحه وكريم أفعاله. بل لقد جعلهم دعاة (ادْفَعْ بِآلِيَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) [فصلت: ٣٤] " (١).

ولقد استخدم النبي ﷺ وسائل متنوعة في كسب قلوب العباد، منها:

أولاً: خدمة الناس وقضاء حوائجهم: فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، والميل إلى من يسعى في قضاء حاجاتها؛ وأولى الناس بالكسب هم الأهل والأقارب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"، وعندما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يفعل؟ قالت: "كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج إلى الصلاة". وحث على إكرام الجار فقال ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره" بل كان ﷺ يسع الناس كلهم بخلقه وتضحيته، ولذلك وصفت السيدة خديجة النبي ﷺ فقالت: "إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق".

ثانياً: الحلم وكظم الغيظ: يقول الله تعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران: ١٣٤]، وعن أنس رضي الله عنه قال: "كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد غليظ

(١) علموا أولادكم محبة رسول الله ﷺ د. محمد عبده يماني (ص ١١١).

الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى أزالته الرداء إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك، وأمر له بعتاء". وإزاء هذا الموقف من سيد الخلق ﷺ لا نملك ألا أن نقول ما قاله الله تعالى في وصفه (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: ٤].

ثالثا: السماحة في المعاملة: يوجز الرسول ﷺ أصول المعاملة فيقول: "رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى"، وروي الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "أن رجلاً أتى النبي ﷺ فتقاضاه فأغلظ، فهمم به أصحابه، فقال النبي ﷺ: "دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً"، ثم قال: "أعطوه سنًا مثل سنه" قالوا: يا رسول الله لا نجد إلا أفضل من سنه، فقال: "أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاء"، فقال الرجل: "أوفيتني أوفى الله بك".

رابعا: المداراة، وهي لين الكلام والبشاشة وحسن العشرة لأناس عندهم شيء من الفجور والفسق لمصلحة شرعية. روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، فلما جلس تطلق له وجه النبي ﷺ، وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله رأيت الرجل قلت كذا وكذا ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه، فقال الرسول ﷺ: "يا عائشة متى عهدتني فاحشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه".

خامسا: إدخال السرور على الناس: فإدخال السرور على المسلم يعد من أفضل القربات وأعظم الطاعات التي تقرب العبد إلى الله تعالى، ولإدخال السرور إلى القلوب المسلمة طرق كثيرة وأبواب عديدة منها ما ورد في حديث ابن عمر: "أحب الناس إلى الله أنفعهم وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مؤمن!! ولكن كيف تدخله؟! قال: تكشف عنه كربًا أو تقضي عنه دينًا أو تطرد عنه جوعًا. ولئن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف شهرًا في المسجد ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم غيظه ولو شاء الله أن يمضيه أمضاه ملأ الله في قلبه رجاء يوم القيامة ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجة حتى يثبتها له ثبت الله قدمه يوم تزل فيه الأقدام".

ومن صور مداعبته ﷺ وكسبه لقلوب صحابته: ما أخرجه أحمد عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً، وكان رسول الله يحبه، وكان دميماً - قبيحاً - فأتاه رسول الله ﷺ وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل، فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل يلصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه وجعل النبي ﷺ يقول: "من يشتري العبد؟" فقال: يا رسول الله إذن والله تجدني كاسداً، فقال رسول الله ﷺ: "لكن عند الله لست بكاسد" أو قال: "عند الله غال".

سادسا: احترام الناس وتقديرهم والتأدب معهم وتبجيلهم وإجلالهم، فقد كان ﷺ يجل من يدخل عليه ويكرمه، وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن

أبي، وينزل الناس منازلهم ويعرف فضل أولي الفضل، وقال ﷺ يوم الفتح: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" وقال ﷺ: "ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه".

سابعاً: حسن الكلام: لقد حث النبي صلى ﷺ على طيب القول وحسن الكلام، حتى مع الأعداء، ومن صور ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: "دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: عليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: "مهلاً يا عائشة"، فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قالت: فقال رسول الله ﷺ: "قد قلت وعليكم" فكلام الرسول ﷺ مع أهل الفجور والفسوق والكفر يحتاج منا إلى دراسة متأنية ففيه البصيرة النافذة والحكمة البالغة.

ثامناً: التواضع ولين الجانب: لقد كسب رسول الله ﷺ بتواضعه ولين جانبه قلوب الناس من حوله. ذكر أنس رضي الله عنه صورة من صور تواضعه ﷺ فقال: "إن امرأة كان في عقلها شيء جاءته فقالت: إن لي إليك حاجة، قال: "اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتك"، قال: فجلست، فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها".

تاسعاً: الجود والكرم: لقد كان جود النبي ﷺ يأسر القلوب ويطيب النفوس، فعن أنس رضي الله عنه قال: "إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى بلده وقال: أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً من لا يخشى فاقة"، وعن جابر رضي الله عنه قال: "ما سئل النبي ﷺ عن شيء قط فقال لا".

المبحث الخامس

الشمائل القرآنية للنبي خير البرية

مدح القرآن الكريم وأثنى على الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا أن أكثر الأنبياء نصيباً في المدح في القرآن الكريم هو نبينا محمد ﷺ، وذلك لِمَا له من شأن عظيم ومكانة عالية عند الله عز وجل، فقد اصطفاه الله سبحانه على جميع البشر، وفضّله على جميع الأنبياء والرسل، وشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وُزْرَه، وأعلى له قدره.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد الكثير من الآيات القرآنية التي تبين عِظَم قدره ﷺ عند ربه سبحانه، وتزكيتته ومدحه له، وثنائه عليه، ومن ذلك: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) [الشرح: ٤] قال ابن كثير: "قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله"، وقال القرطبي: "وروي عن الضحاك عن ابن عباس قال: يقول له: ما ذُكِرْتُ إلا ذُكِرْتُ معي في الأذان، والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها".

قال القاضي عياض: "ومن تأمل تدييره ﷺ أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة الخاصة والعامة، مع عجب شمائله، وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع، دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب، لم يمتري في رجحان

عقله، وثقوب فهمه لأول وهلة، ومما يتفرع عن العقل ثقوب الرأى وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتفاء الفضائل، واجتناب الرذائل، وقد بلغ ﷺ من ذلك الغاية التي لم يبلغها بشر سواه ﷺ".

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [التوبة: ١٢٨] أثنى الله عز وجل ومدح النبي ﷺ في علاقته بأصحابه، ورحمته بهم وشفقته عليهم، وجمع له اسمين من أسمائه، فقال سبحانه عنه (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) قال القرطبي: "قال الحسين بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من أنبيائه اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ فإنه قال عنه: (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)، وقال: (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) [الحج: ٦٥]، وأثنى الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ في صفاته وأخلاقه وشمائله، وجعله الأسوة والقدوة الذي يتبع ويقتدى به في حياتنا كلها، فقال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: ٤]، وقال سبحانه: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب: ٢١]، قال القاضي عياض: "وأما الأخلاق المكتسبة من الأخلاق الحميدة، والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها فضلا عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بعضها بأنه جزء من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخلق، فجميعها قد كانت خلق نبينا محمد ﷺ".

وكل مَنْ مدح النبي ﷺ وأثنى عليه في الماضي والحاضر، يستدل على استحسان مدحه له بما جاء في الثناء عليه في القرآن الكريم، فقد مدحه الله عز وجل وأثنى عليه في كثير من الآيات القرآنية، وأخبرنا سبحانه أنه هو وملائكته يصلون عليه فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦]، من ثم جاء الخلق بعد ذلك مقصرين في حقه ﷺ مهما اجتهدوا ومدحوا وأثنوا عليه.

وفي شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في: ما ورد في آي التنزيل من عظيم قدره ورفعة ذكره ﷺ: "لا سبيل لنا أن نستوعب الآيات الدالة على ذلك، وما فيها من التصريح والإشارة إلى علو محله الرفيع ومرتبته، ووجوب المبالغة في حفظ الأدب معه، وكذلك الآيات التي فيها ثناؤه تعالى عليه وإظهاره عظيم شأنه لديه، وقسمه تعالى بحياته، ونداؤه بـ"الرسول" و"النبي"، ولم يناد باسمه بخلاف غيره من الأنبياء، فناداهم بأسمائهم إلى غير ذلك مما يشير إلى أنافة قدره العلي عنده.. ومن تأمل القرآن العظيم وجدته طافحاً (ممتلاً) بتعظيم الله تعالى لنبيه ﷺ

حول هذه المعاني يحدثنا د. محمد عبده يماني مبينا عظمة رسول الله ﷺ وعظمة معرفته والإيمان به، مبرزاً ما حباه الله تعالى به من فضائل، ميزه بها حتى عن غيره من الأنبياء، داعياً إلى التعرف عليه، فيقول:

"ما أجمل أن ترتبط بسيرة رسول الله ﷺ، وبحياته ﷺ، هذا الرسول الكريم والنبي العظيم الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وشهد

له الله عز وجل بأنه على خلق عظيم، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأعطاه وكرّمه، ووعدّه بالمزيد من العطاء حتى يرضى، وولاه القبلة التي يرضاها. فأى قدر بأبي أنت وأمي يا رسول الله. أي قدر يداني قدرك، فضلاً عن أن يساويه؟ أي مقام يكون مثل مقامك، فضلاً عن أن يساويه؟ بل: كيف ترقى رقيق الأنبياء باسماء ما طاولتها سماء، لم يدانوك في علاك وقد حال سنا منك دونهم وسناء، إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء.

يا صفوة الله في جميع خلقه، وأكرم الأكرمين عليه من رسله، جمع فيك ما تفرق فيهم من صفات الكمال والجمال، وزدت عليهم بما خصك به ذو الجلال والإكرام، فيشهد لك (أنك على خلق عظيم) وأنك (بالمؤمنين رؤوف رحيم)، و (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وأن من يطيعك فقد اطاع الله، وأنه سوف يعطيك حتى ترضى (ولسوف يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد كنت لله فكان لك، وكنت أكثر الخلق مسارعة في مرضيه فخصت بأكثر المسارعة منه في مرضيك، قال تعالى: (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) ولم يقل عز وجل نرضاها، ولو ولّاك الله تعالى القبلة التي يرضاها هو لكانت هي عين القبلة التي ترضاها أنت، فإنك لا ترضى إلا بما يرضاه هو، عز وجل، ولكنه تعالى أراد أن يبين للإنس والجن والملائكة، وما لا يعلم إلا هو تعالى من الخلق، أراد أن يبين لهم جميعاً هذه المزية التي لك عليهم، والمقام الذي خصك به دونهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

موسى رسول الله ﷺ الذي اصطنعه الله على عينه، وناداه من جانب الطور الأيمن، وقربه نجبا، وكلمه تكليما، يقول لربه عز وجل: (وعجلت إليك رب لترضى) ويقول تعالى لك: (ولسوف يعطيك ربك فترضى) إظهارا لفضلك على سائر الخلق، وتنبیها على قدرك الذي هو فوق أقدار الرسل.

ألم يقل موسى ﷺ نفسه (رب اشرح لي صدري) فطلب ما لم يكن عنده فأجابه تعالى بعد أن طلبه، وعلم تعالى منك ذلك فسارع في الإجابة قبل أن تطلبه، فقال تعالى (ألم نشرح لك صدرك).

ما كان أصدق أمنا - أم المؤمنين - عائشة رضي الله عنها حين قالت، فيما يرويه الشيخان، (ما أرى ربك إلا يسارع في هواك).

حقا، لقد أدبك ربك فأحسن تأديبك، قال أصحاب موسى عليك وعليه السلام (إننا المدركون) خوفا من أن يلحق بهم فرعون، فقال لهم موسى (كلا إن معي ربي سيهدين) وخاف عليك أبو بكر في الغار فقلت له (لا تحزن إن الله معنا) فوقف سيدنا موسى المعية من الله عليه وحده دون من معه، وعمم النبي ﷺ هذه المعية الإلهية المقدسة حتى لا تقتصر عليه، وحتى تشمل من معه" (١).

(١) بأبي أنت وأمي يا رسول الله د. محمد عبده يماني (١٥-١٦).

الفصل الثاني

محبة الرسول ﷺ

المبحث الأول

محبة الرسول ﷺ بين الإطراء والتعظيم

ونتدبر قول الله عز وجل في كتابه العزيز: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَحِيمًا) [النساء: ٦٤]، وقوله تعالى: (من يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) [النساء: ٨٠]، (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب: ٢١].

ننظر في هذه الآيات نستشف منها أمر الله سبحانه وتعالى للمسلمين بطاعته ومحبته، وإيضاح مكانته ﷺ وما يجب أن تكون عليه في نفوس المسلمين، ثم ننظر في حديثه ﷺ يخاطب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم قال له عمر رضي الله عنه: إنك يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، قال: "لا، والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك"، فقال عمر رضي الله عنه: فإنك الآن والله أحب إلي من نفسي، قال: "الآن يا عمر". هكذا في جلاء ووضوح حدد رسول الله ﷺ كمال الإيمان بمحبته.

ثم ننظر في حديث رسول الله ﷺ يحدد لنا منهج هذا الحب، ويحذر من مغبة الشرك فيه: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم"، وقد أطرت النصارى عيسى ابن مريم بصورة جعلته شريكا لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فقالوا: إنه ابن الله، وقالوا: إنه ثالث ثلاثة، وقالت طائفة منهم: إن الله هو المسيح بن مريم.

فكانت محبتهم محبة خالطها شرك، وأفسدها ابتداع أدخلهم في تلك المتاهة وذلك الضلال، وقد أطروه بما لم يأمرهم به، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً، وسيفضح الله سبحانه وتعالى كذبهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة كما جاء ذلك في الكتاب العزيز: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ).

ولهذا جاء حديث رسول الله ﷺ يوضح أبعاد هذا الإطار ومخاطره ويحذر مما فيه من شرك فربط الصورة بكل وضوح بموضوع إطار النصارى لعيسى عليه السلام، أما محبته ﷺ وتعظيمه وإجلاله واتباعه فقد حثنا على ذلك كله ودلنا على السبيل، وكان ﷺ أخشى الناس لله وأتقاهم له فهو يقول: (إني لأخشاكم لله وأتقاكم له) (١).

"الذين أحبوا رسول الله ﷺ فازوا وغنموا وكانوا في السابقين وأنعم الله عليهم، والذين أحبوا رسول الله ﷺ صدقوه وأيدوه وزملوه ودرثوه، صدقوه وصدقوه وصدقوا معه، والذين أحبوا رسول الله ﷺ قدموا أنفسهم دون نفسه ونحورهم دون نحره، أحبوه أكثر من أموالهم وأولادهم وأنفسهم، وكانوا رضوان الله عليهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وبذلك يبتغون فضل الله ورضوانه وسلامة هذا النبي الكريم والرسول العظيم ﷺ ورضاه

(١) علموا أولادكم محبة رسول الله ﷺ د. محمد عبده يماني (ص ٩١-٩٣).

عنهم، وكانت سيماهم في وجوههم، وبشرهم ﷺ بأنهم معه في الجنة، وكل الذين أحبوا ويحبون رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة سيكونون معه لأن (المرء مع من أحب)، وهذه بشارة عظيمة لكل من أحب ويحب رسول الله ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والمحبة تبدأ بالاتباع والطاعة، (من يطع الرسول فقد اطاع الله) (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)، (من أحب سنتي فقد أحبني) (١).

(١) بأبي أنت وأمي يا رسول الله د. محمد عبده يماني (ص ٦٥).

المبحث الثاني

حب الصحابة للنبي ﷺ ومظاهرة عندهم

لقد كان حب الصحابة لنبيهم ﷺ شديداً، وما أحب قوم أحداً كما أحب أصحاب محمد ﷺ.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إنك أحب إليّ من نفسي، وأحب إليّ من أهلي، وأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيتُ أن لا أراك.

وفي رواية أن الرجل كان من الأنصار، وقد جاء إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: "يا فلان: ما لي أراك محزوناً؟"، فقال: يا نبي الله: شيء فكرت فيه. فقال: "ما هو؟"، قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً تُرفع مع النبيين، فلا نصل إليك. فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً حتى أتاه جبريل ﷺ بقوله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) [النساء: 69].

ولما وقع في يد المشركين زيد بن الدثنة ﷺ وقدموه ليقتلوه، قال له أبو سفيان: أنشدك الله -يا زيد- أتحب أن مجداً عندنا الآن في مكانك، نضرب عنقه، وأنت في أهلك؟! قال: لا والله، ما أحب أن

مجدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي.

ولما أحاط المشركون بأبي بكر وقد كادوا يقتلونه لأنه فك رسول الله ﷺ من أيديهم، كان أول ما قال بعد أن تخلص منهم وقد بلغ به الأذى مبلغًا كبيرًا: ماذا فعل رسول الله ﷺ؟!.

وكانت المرأة يُقتل ابنها وزوجها وغيرهما من أقربائها في الغزوة فتعلم أن رسول الله ﷺ حيٌّ، فيذهب عنها حزنها وتقول: كل مصيبة بعدك جلل، أي: صغيرة.

وفي غزوة أحد حينما كان سعد بن الربيع ﷺ جريحًا في القتلى لكن ما يزال به بريق من الحياة، جاءه رجل من الأنصار فقال له: إن رسول الله ﷺ قد أمرني أن أنظر: أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟! قال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعيد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًا عن أمته، فأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله أن خُلف إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف. ثم لم يبرح حتى مات.

وقد استبسل الصحابة في التضحية بحياتهم حفاظًا عليه - صلوات الله وسلامه عليه ورضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين-. فالمؤمن المحب لنبيه لا يرغب بنفسه عن مواساته ﷺ فيما يصيبه من مشقة وأذى، ولا يرضى بنفسه عن موطن شدة قد تحمل مثله ووجد فيه نبيه ﷺ كما قال الله عز وجل: (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ

حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ
عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يُغَيِّطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا
كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ
[التوبة: ١٢٠].

إن امتلاء القلب بمحبته ﷺ وميله إليه ﷺ بالعاطفة القوية،
فالميل والعاطفة ليس منشؤهما مجرد الاستئناس وهوى في
النفس، وإنما هما ميل وعاطفة نظرًا لتقديره ﷺ من حيث إنه
رسول، والاعتراف بما جعله الله له من المكانة والفضل، وما بذله
وجرى على يديه من خير وهداية جعله الله سببًا فيها، فهو ليس
ميلًا بمجرد الصحبة والاستئناس، وإنما منشؤه التقدير النابع من
الدين، ومن كونه ﷺ رسولاً رؤوفاً رحيماً حريصاً على الأمة، هذا
الحب القلبي العظيم قد يشفع للإنسان أحياناً إن بدر منه تقصير في
الاتباع الظاهر أو مخالفة ما، كما في حديث البخاري في الرجل الذي
شرب خمراً وأتى به للنبي ﷺ ليضرب، فلغنه بعض الصحابة وقال: ما
أكثر ما يؤتى به. فقال ﷺ: "لا تلغنه، إنه يحب الله ورسوله".

فمحبته ﷺ تشمل كلا الأمرين: العاطفة التي في القلب، والاتباع
وتعظيم الأمر والنهي، فمن حقق الأمرين وكملهما فقد كملت محبته
للنبي - ﷺ -.

وحول هذه المعاني تدفقت حبات اللؤلؤ فانسابت في عبارة
د. محمد عبده يماني مؤكداً على ربط المحبة بالاتباع فيقول: "وقد
جاء التوجيه الرباني ليربط محبة الله عز وجل باتباع هذا النبي

الكريم ومحبة العبد لربه عز وجل تبدأ بمحبة رسوله ﷺ واتباعه، وبذلك يصل العبد إلى محبة الله ومغفرته، قال سبحانه وتعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [آل عمران: ٣١].

ولهذا فنحن مطالبون بتنفيذ أمر الله تبارك وتعالى بأن نسير على هدي هذا النبي الكريم والرسول العظيم ونقتفي آثاره، وأن نقبل عليه، ونحبه، ونجمله، ونتدبر سيرته، وتنتهج منهجه لأنه الرحمة المهداة من رب العالمين للعالمين جميعا، وقد جاء في الحديث: (من أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة) (١).

إن المحبة تقتضي الالتزام والتأدب بآداب الرسول ﷺ والتخلق بأخلاقه والوقوف عند أوامره واجتناب نواهيه، من أهم ما جاء به الدين، وقد أمرنا الله بطاعته في كل ما يأمر به وينهي عنه، قال تعالى: (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) [الحشر: ٧]، فالرسول ﷺ مبلغ عن الله، وطاعته طاعة الله تعالى. قال تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) [النساء: ٨٠] (٢).

ثم يرشد - رحمه الله - إلى أن طريق التعرف عليه ﷺ هو قراءة سيرته وسنته ﷺ فيقول: "ولا شك أن من أهم أسباب المعرفة عنه صلوات ربي وسلامه عليه قراءة سيرته العطرة، والنظر فيما أكرمه الله سبحانه وتعالى به من فضل وكرم، وشجاعة وفصاحة وخلق عظيم، وما أجرى الله على يديه من معجزات،

(١) أجداد النبي د. محمد عبده يماني (ص ٩).

(٢) كيف نصلي على رسول الله ﷺ د. محمد عبده يماني (ص ٥١).

فليس هناك معجزة لنبي أو رسول إلا أوتي مثلها أو أفضل منها، وما كان له من عصمة، إضافة إلى النسب الشريف الذي تنقل به فكان خياراً من خيار، من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى والده عبد الله بن عبد المطلب منتقلاً بأمر الله وحكمته ورعايته في أصلاب هذا النسب الظاهر الشريف (١).

ثم ينصح المريين بأهمية وضرة غرس محبته ﷺ في نفوس النشاء ليناوا شرف القرب منه ﷺ فيقول: "اغرسوا في قلوب الأبناء والبنات محبة رسول الله ﷺ ومحبة آل بيته الطاهرين الطيبين، واذكروا لهم قوله: (من أحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله)، وذكروهم أن كل ما تنعم به البشرية اليوم من عقيدة صحيحة سليمة، وشريعة كاملة شاملة عادلة، تحقق للإنسان الأمن والسلام والحياة الكريمة؛ يرجع الفضل فيها إلى الله سبحانه وتعالى، ثم إليه ﷺ.

لقد فرض الإسلام حب الرسول ﷺ على الناس وأوجبه بقوله تعالى: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنٌ ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله، وجهادٍ في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) [التوبة: ٢٤]، وقوله: (فاتبعوني يُحببكم الله) [آل عمران: ٣١].

قال القاضي عياض في تفسير الآية الأولى: (كفى بها حياءً وتنبها ودلالة وحجة على إلزام محبته وفرضها، وعظم خطرها واستحقاقه

(١) أجداد النبي د. محمد عبده يماني (ص ٩).

لها، إذ قرّع الله تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله
(^١).

اهتم د. محمد عبده يماني بإبراز مظاهر الحب عند أصحاب
النبي ﷺ، فيقول - رحمه الله - :

"ما من مسلم إلا يعلم أن محبة الرسول ﷺ ذات علاقة مباشرة
بالقمة الإيمانية، فهذا رسول الله ﷺ يقول عن معنى محبته
وأبعادها: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده
والناس أجمعين). هكذا يعلمنا كيف تكون محبته ﷺ.

وهذا ثاني الخلفاء الناطق بالحق والصواب يقول لرسول الله
ﷺ: (أنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي)، ويجيبه
ﷺ: (لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك) فقال
عمر رضي الله عنه: (فأنت الآن أحب إلي من نفسي)، فقال رسول الله ﷺ:
(الآن يا عمر).

وهذا أبو بكر الصديق ثاني اثنين، وقد قام في الناس خطيباً
يدعوهم إلى الإسلام بمكة، فأخذوه في ردائه وضربوه فأغمي عليه،
فلما أفاق قال: أروني محمداً، فلما أتت به أمه في دار الأرقم قال: زال
عني كل ما أجد برؤيتك يا رسول الله.

رضي الله عنك يا خليفة رسول الله، تتحمل كل هذا الأذى
وتقاسي ألوان العنت، ولا يشغل بالك ولا يقلقك غير سلامة رسول

(^١) علموا أولادكم محبة رسول الله ﷺ د. محمد عبده يماني (ص ١٩).

الله، وعندما اطمأنت نفسك إلى سلامته، عندها فقط سرت العافية في جسدك وارتحت وزالت آلامك ومتاعبك.

يا لها من صورة رائعة لمعنى الحب الصادق في الله تبارك وتعالى، الحب الذي جعل رسول الله وسلامته وعافيته أحب إليك من سلامتك، فهو أحب إليك من نفسك التي بين جنبيك.

هنيئاً لك يا سيدي بهذا السمو النفسي، وهذه الأثرة التي تعلمنا فيها كيف يكون حب رسول الله ﷺ، ولا غرابة.. فأنت أول من صدقه، وخير من آزره، وأصدق من صادقته، وأشجع من خلفه في أمته وعض على سنته، وقد كان هواك وتصرفاتك تبعاً لما جاء به ﷺ.

ولا غرابة أن يسير الناس على هذا النحو، ويطبّقوا المنهج نفسه في محبته ﷺ، فهذه امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد، وكانوا يقاتلون مع رسول الله ﷺ، وعندما أخبروها بموتهم، كانت سلامة رسول الله ﷺ هي التي تشغلها عن كل شيء، وقبل أن تفكر في مصيبتها في هؤلاء جميعاً، ولهذا فقد صرخت: ما فعل برسول الله؟ هكذا في لهفة وقلق على رسول الله ﷺ. قالوا لها: هو بخير بحمد الله كما تحبين. وعندها فقط اطمأنت رغم فداحة مصيبتها وعظم مصابها. وقالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فلما رآته قالت كلمتها المشهورة، والتي ذهبت نوراً مشعاً عبر التاريخ يشهد بصدق إيمان الأنصارية وعميق حبها الله ورسوله: (كل مصيبة بعدك جليل يا رسول الله).

ما أروع هذه الصورة الإيمانية لهذه المرأة الأنصارية التي أعطت درساً بليغاً في أبعاد محبة رسول الله ﷺ، وإنا لنحس ونستشعر أبعاد هذا الحب اليوم، ونحن نقرأ قصة هذه الأنصارية، فهو حب صادق يتجدد عبر التاريخ.

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وصدقوا في محبتهم لرسول الله ﷺ فبذلوا أموالهم وأولادهم وأنفسهم سخية من أجل سلامة حبيبهم رسول الله ﷺ، صدق في المحبة، وثبات في العقيدة، ووفاء ما بعده من وفاء، رضي الله عنهم جميعاً.

سطروا لنا أجمل صور المحبة، وأصدق أشكالها، وكانوا موقنين بأن النبي الكريم ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم. وكانوا رضوان الله عليهم حريصين على أن يكون هواهم وتصرفاتهم تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ، محبة لله ولرسوله، واستجابة لأمر الله: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ).

وقد كانوا يتسابقون إليه في السلم أيضاً كما يتسابقون للدفاع عنه عند الحروب، وقد ذكر أصحاب السير أن قريشاً أرسلت إلى رسول الله ﷺ وهو بالحديبية، فرأى رسولهم رسول الله ﷺ وهو يتوضأ، فوجد الناس يمسحون بوضوء رسول الله ﷺ. فلما رجع إلى مكة قال رسول قريش: يا أهل مكة كيف يسال دم محمد وأصحابه لا يتركون قطرات وضوئه تقع على الأرض، وكانوا يقتتلون على وضوئه، فمن لم يجد شيئاً أخذ يد صاحبه فمسح بها وجهه.

وهذا علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ".

صلى الله وسلم عليك يا سيدي يا رسول الله وقد أرسلك الله رحمة للعالمين، وجعلك على خلق عظيم بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (١).

"جاء في الحديث الذي أخرجه النسائي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال: (ما أجلسكم؟) قالوا: جلسنا ندعو الله ونحمده على ما هدانا لدينه، وما من علينا بك قال: (آله ما أجلسكم إلا ذلك؟) قالوا: آله ما أجلسنا إلا ذلك قال: "أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وإنما أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة".

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سننا، الأخذ بها تصديق بكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها، ومن اقتدى بها فهو مهتد، ومن انتصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً (٢).

(١) علموا أولادكم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم د. محمد عبده يماني (ص ٦١-٦٤).

(٢) علموا أولادكم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم د. محمد عبده يماني (ص ٩٣).

المبحث الثالث

كيف تكون محبة رسول الله ﷺ:

بطريقته المعهودة وأسلوبه السهل الجذاب يجب عن هذا السؤال د. محمد عبده يماني فيقول: "ما من مسلم ولا مسلمة إلا ويعرف أن محبة الله عز وجل ومحبة رسوله ﷺ هي أساس الإيمان. ولكن كيف تكون المحبة؟ ومن أين تبدأ؟ وما هي أبعاد هذه المحبة لله عز وجل ولرسوله ﷺ؟"

القرآن الكريم علمنا في صراحة أن محبة الله مقيدة وموجهة باتباع رسول الله ﷺ فقال: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)، ومحبة رسول الله مقيدة بالسير على هدايته واتباعه اتباعا لا يداخله خلل ولا شطط، ولا تخالطه بدع أو ضلالات وإنما اتباع يترسم خطاه ﷺ ويكتمل به الإيمان وتذوب فيه النفس حبا وتعلقا وشوقا وقربا من رسول الله ﷺ حتى يكون أحب إلى النفس من النفس: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ونفسه والناس أجمعين) (١).

والاختبار الحقيقي لمحبة رسول الله ﷺ هو مدى قرب الإنسان من تعاليمه ﷺ وإقباله عليها وحرصه على سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالتواجد).

(١) بأبي أنت وأمي يا رسول الله د. محمد عبده يماني (ص ٩٠).

فالرسول قد تركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فمن واجبنا أن نعص على تعاليم هذا الدين بالنواجذ، ونقبل على القرآن الكريم تلاوة وتدبرا وتفقهها في الدين، وأن نلتصق بالسيرة النبوية الشريفة، وننهل من مناهلها العذبة. وعلينا أن ندرك وجوب المحبة وأنها تبدأ بالاتباع، وأنها طريق الفلاح، فمحبة الله ﷻ ومحبة رسوله ﷺ لا بد أن تكون شغلنا الشاغل، وغاية آمالنا حتى تكون من الفائزين.

ولا شك أن الإنسان لا يتذوق حلاوة الإيمان إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأنه عندما يحب إنما يحب في الله، وعندما يكره إنما يكره لله، وعندما يأمر فابتغاء وجه الله فالحمد لله الذي جعلنا من المسلمين، وأكرمنا بسيد المرسلين، وحبب إلينا خاتم النبيين، وآل بيته الأكرمين الطاهرين وصحابته الطيبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونسأله عز وجل أن يحشرنا في معيبتهم أجمعين (١).

محبة مقرونة بإجلال

وها هو عمرو بن العاص ﷺ يقول وهو في سياق الموت: "ما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أظفت؛ لإني لم أكن أملاً عيني منه". رواه مسلم.

(١) بأبي أنت وأمي يا رسول الله د. محمد عبده يماني (ص ٩١).

المبحث الرابع

اتباع النبي ﷺ دليل المحبة

رسول الله ﷺ هو نبي الرحمة، وهو الشافع المشفع، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، المشفق على أمته، والمبلغ لرسالة رب العالمين.

إن محبة النبي ﷺ أصل من أصول الإيمان وهي مقارنة لمحبة الله عز وجل، قال تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء: 65]، وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين" (١).

هذا الحديث من جوامع الكلم الذي أوتي به ﷺ؛ لأنه قد جمع في هذه الألفاظ اليسيرة معاني كثيرة؛ لأن أقسام المحبة ثلاثة: محبة إجلال وعظمة كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة استحسان ومشاكلة كمحبة سائر الناس، فَحَصَرَ النبي ﷺ في هذا الحديث أنواع المحبة.

ولهذا حين قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنبي ﷺ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٢/١) برقم (١٥).

ﷺ: "فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي"، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "الآنَ يَا عُمَرُ" (١).

فمن استكمل الإيمان علم أن حق الرسول ﷺ وفضله أكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأن الله تعالى استنقذ أمة الإسلام بالرسول ﷺ وهداهم من الضلال.

وعلاوة تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة كل مخلوق: أنه إذا تعارضت طاعة الرسول ﷺ في أوامره وأمر آخر يدعو إلى غيرها من هذه الأشياء المحبوبة، فإذا قَدَّمَ الإنسان طاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره على ذلك الأمر؛ كان ذلك دليلاً على صحة محبته له ﷺ، وإن قدم على طاعته وامثال أوامره شيئاً من هذه الأشياء المحبوبة للنفس؛ دَلَّ ذلك على عدم إتيانه بالإيمان التام الواجب عليه نحوه ﷺ.

في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" (٢).

(١) صحيح البخاري، كتاب الأيمان والندور، باب: كيف كان يمين النبي ﷺ (٢٤٤٥/٦) برقم (٦٢٥٧).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٤/١) برقم (١٥)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٨/١) برقم (٧٤).

وفي الصحيحين أيضًا عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين (١) .

ومحبته ﷺ تقتضي أن يشعر كل منا نحوه بعاطفة قلبية أقوى من العاطفة التي يشعر بها نحو أمه وأبيه، أو زوجه وولده، أو أخيه وصديقه، بل يحبه ﷺ ويشفق عليه أكثر من حبه لنفسه وشفقته عليها، وإذا كنا نقول: إن محبته ﷺ تقتضي تعظيم أمره ونهيه واتباعه في ذلك دون سواه، فإننا لا نقصد أن تكون المحبة في صورة الاتباع في الظاهر فحسب، بل أصل المحبة ميل في القلب إلى المحبوب ﷺ وعاطفة تفوق أي عاطفة نحو أهل أو مال أو وطن، كما قال الله -عز وجل- في كتابه العزيز: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [التوبة: ٢٤].

فهكذا ينبغي أن يكون قدر محبته ﷺ في قلوبنا، فالمؤمن الذي يحب رسول الله ﷺ لا يحزنه أن يذهب الناس بالأموال والمساكن والتجارة ويذهب هو بحب الرسول ﷺ، ولا يفرح المؤمن بشيء في هذه الدنيا فرحه بأنه من أتباع رسول الله ﷺ (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) [يونس: ٥٨].

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٢/١) برقم (١٥).

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما ورَّع الغنائم يوم حنين على أناس من قريش ومن قبائل العرب ولم يعط الأنصار منها، حزن رجال من الأنصار ووجدوا في أنفسهم من ذلك، أي حزنوا وغضبوا، فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: "يا معشر الأنصار: فما قالة بلغتني عنكم؟! وجدةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم؟! ألم آتكم ضللاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟!"، قالوا: بلى، لله ورسوله المن والفضل. ثم قال: "ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟!"، قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟! لله ورسوله المن والفضل. قال - صلى الله عليه وسلم: "أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتُم ولصدقتكم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخدولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، أوجدتم -يا معشر الأنصار- في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا لئسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟! ألا ترضون -يا معشر الأنصار- أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رجالكم؟! فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار". فبكى القوم حتى بللوا لحاهم بالدموع وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا (١).

ما أكرمنا الله بشيء كما أكرمنا برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أنعم علينا بنعمة ولا منة أفضل منه صلى الله عليه وسلم، (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ

(١) المسند للإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي سعيد الخدري (٢٥٤/١٨) برقم (١١٧٣٠).

فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [آل عمران: ١٦٤] "لَقَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [التوبة: ١٢٨].

الفصل الثالث

حديث القرآن عن بشرية الرسول ومعجزاته وغزواته

المبحث الأول

بشرية النبي ﷺ

رسول الله ﷺ بشر لكنه ليس ككل البشر

لقد شاء الله العليم الحكيم أن يكون رسله إلى الناس بشرا من جنس المرسل إليهم ولبسانهم ليبينوا لهم شرع ربهم، ولتقوم بهم الحجة على الناس، وتنقطع عنهم المعاذير، ويسهل عليهم اتباع رسلمهم، والفهم عنهم، كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) [إبراهيم: ٤]، قال تعالى: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) [إبراهيم: ١١]، يوضح الله بعض جوانب هذه البشرية فيقول سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) [الفرقان: ٢٠].

ولم يكن رسول الله ﷺ بدعا من الرسل بل كان بشرا كغيره من الأنبياء والرسل السابقين عليه، قال تعالى: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ) [الكهف: ١١٠]، وهذا أبلغ تأكيد من الله على أن الرسول ﷺ له خصائص البشر وصفاتهم وهو مفضل عليهم بالوحي والرسالة.

والآيات القرآنية تثبت بشرية الرسول ﷺ وأنه لم يخرج عن نطاق البشرية، وأن ما أتى به من وحي أو جرى على يديه من آيات فإنما هو بقدره الله وحده، وأن الرسول لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ. قَالَ تَعَالَى: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ١٨٨].

وحياة رسول الله ﷺ وسيرته توضح هذا الأمر أتم توضيح فقد عاش ﷺ بشرا تجري عليه أعراض البشرية طيلة حياته منذ أن ولد إلى أن مات فأكل وشرب، ومشى في الأسواق، وباع واشترى، وتزوج وأنجب، وحارب، وسالم، وغضب، ورضي، وفرح وحزن، وأدركه المرض فمرض، ومات كما يموت سائر البشر ﷺ، وكل من عايش رسول الله ﷺ أو تتبع سيرته أدرك هذه الحقيقة تمام الإدراك.

ومع كون الرسول ﷺ بشرا، إلا أن الله عز وجل هيأه تهيئة خاصة تتناسب مع هذا الأمر العظيم الذي اصطفى له. فكماله في الخلق والخلق، فكان رسول الله ﷺ أكمل البشر في كافة الجوانب البشرية، كما كان أكملهم عبودية لربه وقيامه بحقه.

فمنزلة العبودية لله هي أرقى درجات الكمال البشري، لأن الله إنما خلق الخلق لعبادته، وأكمل الخلق قياما بهذا الأمر أتمهم عبودية له، ولا يصدق هذا في المقام الأول إلا على الأنبياء والرسل، وأكملهم محمد ﷺ الذي أكمل الله له مقام العبودية. فلم يختر عليه ما سواه لعلمه بعظم هذه المنزلة عند ربه. فقام رسول الله ﷺ بحق هذه العبودية أتم قيام، فدعا الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وأخرجهم من العبودية لأهوائهم وشهواتهم إلى العبودية لله رب العالمين، كما صان مقام عبوديته لربه من كل ما يفسده أو يضعفه.

فاستحق رسول الله ﷺ أن يكون العبد الأول لربه، ولذلك خصه الله من عباده المرسلين بما لم يعطه أحدا غيره، فهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مشفع، وأول من تفتح له أبواب الجنة.

يقول د. محمد عبده يماني مؤصلاً لهذا المعنى: "كانت حياة النبي ﷺ واضحة معلومة منذ ولادته وحتى وفاته، وكلها سيرة عطرة معروفة التفاصيل كريمة الأصول، لم يعبد فيها أحداً غير الله، فكان قدوة الأمة في التوحيد، ومثلاً يحتذى في العبودية لرب العالمين، وكذلك لم يدع إلى تعظيم نفسه أو عبادتها وإنما كان معلم التوحيد ورسول الإخلاص للواحد الأحد، ولهذا فإن الله تعالى قد حفظه من الشرك، فلم يعبد أحداً غير الله قبل أن يبعثه، فلما بعثه كان أول ما دعا إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده الله ورسوله.

وتزوج النبي ﷺ من السيدة خديجة بنت خويلد وولدت له قاسماً وعبد الله والطيب وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة الزهراء، وبقي في مكة أربعين عاماً قبل البعثة وثلاثة عشر عاماً بعد البعثة، يجري عليه ما يجري على البشر، وهاجر إلى المدينة وبقي بها عشر سنوات يجري عليه ما يجري على البشر، وتوفي كما يتوفى سائر البشر، ودفن - بأبي هو وأمي - كما يدفن كل إنسان، فصفات البشرية واضحة في كل مراحل حياته كل الوضوح. وقد أعلن القرآن الكريم ذلك في مواضع كثيرة: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) [الكهف: ١١٠]، وأعلن هو في أكثر من مناسبة أنه بشر،

ونجد في القرآن الكريم تشديداً على بشريته وبشرية الأنبياء من قبله، واستبعاد أن يدعي أحد منهم أنه رب من الأرباب، أو أن يتخذوا لأنفسهم ربا من الملائكة أو النبيين (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران: ٧٩-٨٠] (١).

"إذا قرأنا القرآن وتدبرناه نجد أن هناك توجيهها واضحاً جلياً من الله عز وجل لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يعلن أنه بشر، ففي سورة الكهف وفي سورة فصلت (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد) [الكهف: ١١٠]، [فصلت: ٦].

ولما طلب أهل مكة منه أموراً خارقة للعادة، حكى القرآن الكريم ما طلبوه من الخوارق مؤكداً أنه بشر، وأن الخوارق بيد الله تعالى، وأن محمداً لا يستطيع أن يأتي بآية من عند نفسه إلا أن يشاء الله (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً) [الإسراء ٩٠-٩٣] (٢).

(١) لماذا لم يعبد رسول الله د. محمد عبده يماني (١٢-١٥).

(٢) لماذا لم يعبد رسول الله د. محمد عبده يماني (٢١-٢٢).

"ذكر ابن إسحاق في سيرته بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنت ممن حضر العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا ننزي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف ... الحديث. وهذه أول بيعة وقد ابتدأت على أن لا نشرك بالله شيئاً.

وكانت كتب النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب مقترنة بهذه الآية: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) [آل عمران: ٦٤]، فهذا أمر من الله لرسوله أن يدعو أهل الكتاب لعبادة الله وحده وينهاهم عن الشرك.

وكان مما قال في خطبته يوم الفتح: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، وكان مما قام به يوم الفتح: تكسير الأصنام، وكان يطعنها بعود في يده وهو يقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) [الإسراء: ٨١]، (قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) [سبأ: ٤٩]، ومن يوم فتح مكة حتى الآن وإلى ما شاء الله ينادي المؤذن فوق الكعبة كما ينادى فوق كل مسجد في الأرض: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

وعندما شاع يوم أحد بعد مقتل مصعب بن عمير رضي الله عنه، - وكان شبيهاً بالنبي صلى الله عليه وسلم خلقاً وخلقاً - أن النبي صلى الله عليه وسلم قُتل، وكبر ذلك على المسلمين، نزل قول الله تعالى بهذا التعبير الواضح العظيم، يثبت

بشريته، وأنه يصيبه ما أصاب من قبله من الرسل من موت أو قتل (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً) [آل عمران: ١٤٤]، ولما تمنى بعض المشركين من قريش موته نزل قوله تعالى: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون) [الأنبياء: ٣٤]، ولما استبطأ بعض كفار قريش موته نزل قوله تعالى: (إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) [الزمر: ٣٠-٣١].

وقد حكى القرآن الكريم تعجب المشركين من أن يكون الرسول ﷺ بشراً فقال: (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) [الفرقان: ٧].

هذه النصوص وغيرها مما جاء على شاكلتها، وهي كثيرة جداً، لا تكاد تخلو منها صفحة في كتاب الله، وهي تتلى وتقرأ وتكرر على ألسنة الحفاظ والقراء والعلماء وعلى رؤوس الأشهاد.

وها هو ذا رسول الله ﷺ يصيبه ما يصيب البشر في غزوة أحد، فيقع في حفرة من الحفر التي حفرها وغطاها أبو عامر الراهب، وأغمي عليه، وخذشت ركبته ورماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته، وكذلك شج وجهه الشريف وجرحته وجنتاه. ولما قال: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم أنزل الله تعالى: (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) [آل عمران: ١٢٦]، وكذلك لما قنت شهراً يدعو على عكل وعريئة نزلت: (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون)

[آل عمران: ١٢٦]، وقيل: إنها نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القراء بعثهم رسول الله ﷺ إلى أهل بئر معونة وهي بين مكة وعسفان وأرض هذيل، وذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد، بعثهم ليعلموا الناس القرآن والعلم وأمر عليهم المنذر بن عمرو، فقتلهم عدو الله عامر بن الطفيل، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً وقتت شهراً في الصلوات كلها يدعو على من قتلهم من تلك القبائل.

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً بعدما يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد. فأنزل الله تعالى عليه: (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) [آل عمران: ١٢٦].

فهذه النصوص تدل دلالة قاطعة واضحة على أن محمداً عبد الله ورسوله ونبيه وهي من الوضوح والقوة تمنع أن يعبد محمد ﷺ في حياته أو بعد مماته؛ لأنها تؤكد بشريته مع عظم شأنه وقدره، وهو الذي علم الأمة التوحيد وهداها إلى الصراط المستقيم وكان رحمة للعالمين، عبد الله على هدى وبصيرة وإخلاص، وهدم كل معالم الشرك وحارب سبله وأدواته، ولم يسمح لأحد بتقديسه أو عبادته ولم يدع أحد أبداً أنه إله، وما حاول أحد مجرد محاولة عبادة سيدنا محمد ﷺ؛ لأن كل ما جاء في الكتاب والسنة كفيل بمنع ذلك والحيلولة دونه.

فالتأكيد على بشريته ﷺ، وتكرار التأكيد في القرآن الكريم على بشرية الأنبياء والمرسلين لا تخفى على أحد.

وهذا القرآن الكريم أنزل على محمد ﷺ، وهو محفوظ في صدور أصحابه ومن بعدهم من التابعين وتابعيهم إلى يومنا هذا، وهو يتلى دوماً ويفسر دوماً، وإن تكرار التأكيد على هذا مانع كبير أن يعبد في حياته أو بعد مماته. ففي سورة الإسراء: (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً) [الإسراء: ٩٤]، وفي سورة يس قول أهل القرية لرسولهم: (ما أنتم إلا بشر مثلنا) [يس: ١٥]، وفي سورة التغابن: (فقالوا أبشر يهودوننا) [التغابن: ٦]، وفي قصة فرعون وموقفه مع موسى ﷺ وهارون عليهما الصلاة والسلام: (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) [المؤمنون: ٤٧].

وفي القرآن الكريم النص على رسالة محمد ﷺ، وأنه واحد من الرسل، وأنه من العرب: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم) [آل عمران: ١٦٤]، (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) [التوبة: ١٢٨]، (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم) [البقرة: ١٥١].

وفي سيرته الشريفة ﷺ، أنه خَيْرٌ بين أن يكون ملكاً رسولاً، وبين أن يكون عبداً رسولاً، فاختر أن يكون عبداً رسولاً، يجوع يوماً فيصبر، ويشبع يوماً فيشكر، قالت عائشة رضي الله عنها: "إنا كنا آل محمد ﷺ لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلا التمر والماء" رواه الشيخان، وقالت عائشة رضي الله عنها: "ما شبع رسول الله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا" رواه البخاري. وربط على

بطنه حجراً من الجوع في حفر الخندق وهذا كثير وكثير في سيرته وكلها تأكيد على بشريته وتجسيد لصبره واحتسابه وعبوديته الله.

وهذه السيرة يتداولها المسلمون وغير المسلمين، وحين توفي رسول الله ﷺ، واشتد الأمر على عمر ﷺ فقال: إن محمداً لم يمت، خطب أبو بكر ﷺ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) [آل عمران: ١٤٤].

وفي هذا تأكيد من الله تعالى لعباده بأن محمداً عبد الله ورسوله، وأنه يجري عليه ما يجري على سائر البشر من الموت أو القتل، فهل يعقل بعد هذا أن يعبد رسول الله في حياته أو بعد موته؟!

وفي كلمة أبي بكر ﷺ ما يثبت أن عبادة رسول الله ﷺ لم تخطر على بال أحد من الصحابة، فهو يذكرهم بخصائص النبي ﷺ التي يعرفونها، وأنه بشر رسول قد خلت من قبله الرسل، وأن الله تعالى قد كتب عليه الموت كما كتبه عليهم وعلى سائر الناس: (إنك ميت وإنهم ميتون) [الزمر: ٣٠]، (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون) [الأنبياء: ٣٤]، وكأنه يقول في خطابهم: إنكم تعلمون من حياة نبيكم ومن هديه أنه عبد الله ورسوله، وقد بلغ رسالة ربه كما أمره الله، وها هو ذا قد مات تصديقاً لوعده الله، فانظروا ماذا أنتم فاعلون بعد موته، فإنكم مطالبون باتباع هديه، وتبليغ رسالته كما أمركم الله بذلك وشرفكم به، فجعلكم شهداء على الناس، فقوموا إلى ذلك، وانهضوا بهذا الأمر فإنكم مسؤولون عنه

تصديقاً لقول ربكم: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) [البقرة: ١٤٣].

وفي إثبات بشريته ما ورد في الحديث الشريف عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: "أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء" رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح، وما رواه الشيخان عن المغيرة رضي الله عنه قال: "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه"، وفي رواية لهما: "كان يصلي حتى تتورم قدماه، فقيل له: أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبداً شكوراً" رواه الترمذي.

هكذا يؤكد على عبوديته وشكره الله الواحد الأحد. فهل يعقل بعد هذا أن يعتقد أحد أنه إله يعبد من دون الله أو مع الله؟ حاشا لله ذلك وكلاً" (١).

"وبعد، فقد بدا واضحاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رسول التوحيد وخاتم الأنبياء والمرسلين، قامت دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وجاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد القهار وحده لا شريك له ولا مثيل، وحذر هذا النبي صلى الله عليه وسلم أمته من أصناف الشرك وألوانه، ورباهم على الوجدانية لله عز وجل.

وجاءت القمة الإيمانية لتوضح أن الله عز وجل هو أغنى الأغنياء عن الشرك فهو نبي التوحيد والرحمة المهداة للعالمين،

(١) لماذا لم يعبد رسول الله د. محمد عبده يماني (٢٣-٣٣).

ولأنه جاء بآخر الرسائل فقد تكفل الله عز وجل بحفظ هذا الكتاب ولم يستحفظ الناس عليه فقال عز وجل : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر:٩].

"هكذا أعلنها الرب وطمأن هذه الأمة أنه قد تكفل بحفظ القرآن الكريم، ولأن رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين فقد تكفل الله سبحانه وتعالى بعصمته من الناس (والله يعصمك من الناس) [المائدة:٦٧]، وشهد له رب العزة والجلال بأن ما يأتي به إنما هو وحي يوحى، فقال عز وجل: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) [النجم: ٣-٤]، هكذا حفظ الله عز وجل كتابه، وشهد لرسوله بالعظمة، وعصمه وكرمه وأكرمه ورفع له ذكره، ومع ذلك فقد نبهنا إلى أنه بشر وأنه خير من عبد الله عز وجل، وخير من دعا إلى عبادة الله عز وجل، ثم أوضح مكانته عند ربه، وأمر الأمة بأن توقر هذا الرسول وأن تحبه وتثني عليه في حدود ما أمر الله عز وجل^(١).

(١) لماذا لم يعبد رسول الله د. محمد عبده يماني (٧٧-٧٨).

المبحث الثاني

حديث القرآن عن معجزات الرسول ﷺ

تناول د. محمد عبده يماني في كتاباته بعض المعجزات الحسية للنبي ﷺ التي أيده الله تعالى بها، والتي هي شهادة على صدق نبوته، وهي مبثوثة في آيات القرآن الكريم، بالإضافة إلى المعجزة المعنوية الخالدة الباقية - القرآن الكريم - ، فقال:

"أيد الله تعالى أنبياءه الكرام بالمعجزات الخارقة التي تشهد بصدقهم، وما من نبي إلا وآتاه الله معجزة أو معجزات تكون شاهداً على صدق نبوته، وداعياً قوياً لإيمان الناس به، وقد أيد الله نبينا محمداً ﷺ بأعظم المعجزات المادية والمعنوية، وأعظم معجزاته القرآن الكريم الذي أعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله، بل أن يأتوا بسورة من مثله.

أما معجزاته الأخرى فهي كثيرة جداً، منها: معجزة الإسراء والمعراج: فقد أسرى الله تعالى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام في ليلة واحدة، وقد جاء النص على الإسراء به في مطلع سورة الإسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الإسراء: ١].

لقد جاء النص منذ بدايته إعلاناً واضحاً بأن الإسراء به لم يكن بقدرته هو، ولا بقدره أحد من الملائكة، ولكنه بقدره الله القادر على كل شيء، فهو الذي أسرى به، وهو الذي رفعه إلى السماوات

السبع وما فوقهن وأراه من آياته الكبرى ما شاء، وجاءت البداية تسبيحاً لله «سبحان» إعلاناً واضحاً بأن هذه المعجزة ليست من قدرة محمد ﷺ، بل هي من فعل الله المنزه عن المشابهة لأحد من الخلق، أو الخضوع لقوانين المادة التي تخضع لها الخلائق، وكأن الآية الكريمة تقول: إن معجزة الإسراء والمعراج لا تقاس بما تألفونه من قوانين الجاذبية والثقل ووسائط النقل وما تعرفونه من حدود السرعة، بل تقاس إلى قدرة خالق السماوات والأرض، الفعال لما يريد، الذي يسبح له كل ما في الوجود، وينزهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن المشابهة للخلق، أو الخضوع للأسباب.

وقد جاء النص على عبودية النبي ﷺ لله منذ مطلع الآية: (أسرى بعبده) فهو عبد رسول، بل هو أعبد خلق الله لمولاه كما هو أخشى خلق الله لله، وذلك أمر معروف ومشهور عنه لا يحتاج إلى دليل، ونصوصه في الكتاب والسنة واضحة بينة، وجاء النص على عبوديته في مطلع سورة النجم التي جاء فيها الحديث عن معجزة المعراج واضحاً لا لبس فيه: (والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى) [النجم: ١-٤]، فدل على أنه رسول من البشر قد حفظه الله من الضلال والغواية، وأن ما يأتي به وحي من الله، وأن الذي يأتيه بالوحي هو جبريل ﷺ، وقد رآه النبي ﷺ بصورته الملائكية وله ستمائة جناح مرتين: مرة عندما فاجأه الوحي أول مرة في جبل ثور؛ و (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفтарونه على ما يرى) [النجم: ٥-١٢]، ومرة أخرى ليلة الإسراء حين عرج به

إلى السماوات العلى، وإلى سدرة المنتهى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) [النجم: ١٣- ١٨] ^(١).

ثم تناول الحديث حول بعض المشاهد التي رآها في رحاته المباركة، فقال:

"والآيات التي رآها في الإسراء والمعراج كثيرة جداً، منها: ركوبه البراق، وحشر الأنبياء له، وصلاته بهم إماماً في بيت المقدس، وعروجه إلى السماوات السبع، ورؤيته في كل سماء واحداً من الأنبياء، وتسليمه عليهم، ورؤيته موسى في السماء السادسة، وإبراهيم في السماء السابعة، ورؤيته البيت المعمور في السماء السابعة، وعروجه إلى سدرة المنتهى، وتكليم الله له، وما غشي السدرة من نور الله، ومن الملائكة، ورؤيته الجنة ونعيمها وأهلها، ورؤيته النار وعذابها وأهلها وأصناف المعذبين فيها، ورؤيته جبريل عليه السلام في صورته وله ستمائة جناح، وفرض الصلاة عليه خمسين صلاة، ثم تخفيفها عنه وعن أمته إلى خمس، وكلها معجزات كبرى لم يتح مثلها لنبي سواه، وقد عاد من رحلته تلك يتلو على الناس ما يؤكد عبوديته الله، وأنه بشر رسول من الله ^(٢).

ثم انتقل إلى الحديث عن بعض معجزاته الأخرى، فقال:

(١) لماذا لم يعبد رسول الله د. محمد عبده يماني (٥٣- ٥٤).

(٢) لماذا لم يعبد رسول الله د. محمد عبده يماني (ص ٥٤).

"ومن معجزاته ﷺ أيضا: أنه سقى الجيش من قذح صغير وضع فيه يده فنبع الماء من بين أصابعه حتى رووا كلهم، أليست هذه حادثة صحيحة وواردة.

وكذلك معجزة إطعام النفر الكثير من صاع. قيل إنهم نحو الثلاثمائة، وقيل إنهم ثلاثون ومائة كما في البخاري، فهل هذا أيضاً يمكن أن ينكر لمجرد أنه يتنافى مع بشريته" (١).

"ومن معجزاته الأخرى: انشقاق القمر يوم طلبت قريش منه معجزة تدل على صدق نبوته، فشق الله تعالى القمر نصفين فأرأوه رأي عين، ثم لم يكن منهم إلا أن قالوا: سحرنا محمد فأنزل الله تعالى: (اَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) [القمر: ١-٢]، وسياق هذه الآية صريح بأنها في الدنيا، والأحاديث في ذلك صحيحة، وقد رواها الشيخان" (٢).

(١) لماذا لم يعبد رسول الله د. محمد عبده يماني (ص ٥٥).

(٢) علموا أولادكم محبة رسول الله ﷺ د. محمد عبده يماني (ص ١٦١).

المبحث الثالث

حديث القرآن عن غزوة بدر الكبرى

في حياة كلّ أمة أيام تعتز بها وتتذكرها دائماً وتعلمها لأبنائها، فيعرفون ماضيهم ويفهمون حاضرهم ويصنعون مستقبلهم في ضوء الدروس المستفادة منها، وقد قال تعالى: (وذكّرهم بأيام الله).

ومن أعظم أيام الله ونعمه على أهل الإسلام يوم بدر؛ إذ إنه كان يوماً فاصلاً، ليس فقط في تاريخ الإسلام بل في تاريخ العالم كله، فقد فرّق الله فيه بين الحق والباطل، وأعرّ الله فيه الإسلام وأهله، وأذلّ فيه الشرك وأهله، وكان سبباً رئيساً في ميلاد حقيقي لدولة الإسلام؛ فأصبح المسلمون من يومها قوةً كبيرةً مرهوبةً من جانب أعدائها، كما وضّحت بسبب بدر حقيقةً كبيرةً وهي أن الإسلام دين له دولة تحميه وتدافع عنه، ونظراً لتلك الأهمية الكبيرة ليوم بدرٍ فقد علّق عليها القرآن تعليقاً مطوّلاً، وأفرد لها سورة الأنفال كاملةً، والتي نزلت للتعقيب على هذه الغزوة وأحداثها. وهذا ما يجعل من دراسة هذا التعقيب القرآني وتتبع ما به من رسائل وإشارات أمراً في غاية الأهمية.

ويمكن لنا إبراز أهم القضايا التربوية التي اهتم القرآن بها عند تناوله لهذه الغزوة، واستعراض أبرز دلالاتها وأهم الدروس والعبر المستفادة منها، وذلك بعد أن نستعرض باختصارٍ أحداث الغزوة كما رواها أهل السّير.

أحداث غزوة بدر:

كان سببها إجمالاً أن النبي ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عيرٍ لقريش عظيمة فيها أموال لهم وتجارة من تجاراتهم، فندب المسلمين إليهم ليعوضهم عما فاتهم من أموالهم في مكة، ولما علم أبو سفيان بخروج النبي ﷺ وأصحابه إليه، بعث رجلاً إلى مكة يستنفر الناس إلى أموالهم، فتجهز أهل مكة سراعاً، وكانوا بين خارجٍ أو باعثٍ مكانه رجلاً، واستشار النبي ﷺ أصحابه، ثم خرج بجيشه يوم الاثنين لثمانٍ ليالٍ خلون من شهر رمضان في سبعين بعيراً يعتقبونها، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير رضي الله عنه.

نزل النبي ﷺ قريباً من بدرٍ، وكان أبو سفيان بن حرب قد استطاع أن يفلت بالقافلة، فأرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نردَّ بدرًا فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا.

مضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، وأنزل الله المطر فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبّد لهم الأرض، ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدرُوا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدرٍ نزل به، وذلك بمشورة الحباب بن المنذر، وبني الصحابة للنبي ﷺ عريشاً يكون فيه، وذلك عن مشورة سعد بن معاذ رضي الله عنه، ثم أقبلت قريش فلما رآها رسول الله ﷺ قال: "اللهم هذه قريش

قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحيهم الغداة".

دار كلامٌ كثيرٌ بين القرشيين، وحصل بينهم خلافٌ كبيرٌ، وكان أكثر رجالهم يودون الرجوع، إلا أن أبا جهل استطاع أن يسعّر الحرب، فبدأت المعركة بالمبارزة، ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وحمي وطيس المعركة في صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان، وشاركت الملائكة في المعركة إلى جانب المسلمين، وكان شعار المسلمين يوم بدر: أحدٌ أحدٌ.

ثم دارت الدائرة على للمشركين فهزموا شرّ هزيمة، وقتل الله تعالى جماعةً من صنديد قريش على رأسهم أبو جهل، وأسر من أسر من أشرفهم، فلما انقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن سورة الأنفال بأسرها.

وقد تناول د. محمد عبده يماني أحداث يوم بدر من عدة زوايا، فأشار أولاً إلى سبب نزول الآيات، ثم يعرج على الأحداث مبرزاً ما فيها من عبر ودروس فيقول:

"سبب نزول الآية: عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: وكان ذلك سبباً في نزول الآية: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بعد أن عرض عليهم الموقف الجديد قائلاً: "أشيروا علي أيها الناس"، فانبرى الصديق رضي الله عنه فتكلم وأحسن وعبر عن استعداد المسلمين للتضحية، ثم تكلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال قولاً طمأن النبي صلى الله عليه وسلم على قوة وثبات

المهاجرين، وقال: يا رسول الله إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك، فتأهب لذلك أهبتة وأعد لذلك عدته، فقال ﷺ: "أشيروا علي أيها الناس؟" فقام المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون" ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا علي أيها الناس، فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: لعلك يا رسول الله تخشى أن لا تكون الأنصار يريدون مواساتك ولا يرونها حقا عليهم إلا بأن يروا عدوا في بيوتهم وأولادهم ونسائهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم يا رسول الله، فأظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذته منا أحب إلينا مما تركت علينا، وما ائتمرت من أمر فأمرنا لأمرك فيه تبع، فو الله لو سرت حتى تبلغ البرك من غمد ذي يمن لسرنا معك، فلما قال ذلك سعد رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "سيروا على اسم الله عز وجل، فإني قد أريت مصارع القوم"، فعمد لبدر. (١)

ثم ذكر سبب نزول قوله تعالى: (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) فقال: "يروى بعض المحدثين أن أبا جهل قال حين التقى

(١) بدر، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان د. محمد عبده يماني (ص ١٩ - ٢٠).

القوم: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا تعرفه فأحنه الغداة، فكان المستفتح، وفيه نزلت: (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ...) (١).

ثم تناول الاستعداد للغزوة وكرامة الله لأولياؤه، فقال: "ولما نزلت قريش بعد ليلتها تلك، جاء جماعة من قريش ليردوا الحوض فأراد بعض أصحاب رسول الله ﷺ منعهم، فقال عليه الصلاة والسلام: "دعوهم" فشربوا واستقوا. يقول الرواة: ما شرب أحد منهم في هذا اليوم من حوض المسلمين إلا قُتل في المعركة بعد ذلك عدا حكيم بن حزام فقد نجا وأسلم وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد في يمينه - كما يقولون - يقول: والذي نجاني يوم بدر.

وبأمر الله يرى كل فريق الفريق الآخر قليل العدد والعدة، يقول تعالى: (إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتَهُمْ وَلِتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ)

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، وقال رجال من المشركين حين رأوا قلة المسلمين: (عَرَّ هَوْلًا دِينَهُمْ).

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئِئِ التَّقَاتِ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ).

رأى المسلمون أعداءهم قليلي العدد قبل المعركة، وكذلك المشركون رأوا عدد المسلمين قليلاً قبل المعركة، وحين التحم

(١) بدر، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان د. محمد عبده يماني (ص ٣٤).

الجمعان وبدأ القتال تبدل الحال فأروهم مثلهم رأي العين، وذلك لأن الله أرسل الملائكة مدداً للمسلمين وبهم كثر العدد (١).

ثم انتقل - رحمه الله - إلى الحديث عن إنسانية الرسول ﷺ وحكمته في ميدان المعركة، فيقول: يروي ابن إسحق: أن الأسود المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيء الخلق والطبع - أقسم ليشرين من حوض رسول الله ﷺ أو ليهدمنه، أو ليموتن دونه، فخرج له حمزة ﷺ فضربه بسيفه ضربة أطن - بتر - ساقه فيها فوقع على ظهره، وحبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه لير قسمه، وهدم جانباً بساقه الصحيحة، فتابعه حمزة فضربه فقتله في الحوض.

الأولون جاءوا يشربون للارتواء من الظمأ فأمر رسول الله ﷺ بتركهم يشربون، بدافع من الرحمة والإنسانية ولو كانوا أعداء، أما الأسود المخزومي فقد جاء تحدياً وبغياً وعدواناً وشراسة وسوء أدب، فاختلف الأمر وكان لا بد من تأديبه ووقفه عند حده وردع الآخرين بقتله.

وهذه دروس استفدنا منها من ممارسة رسول الله ﷺ في الحرب وشريعته في ميدان القتال (٢).

ثم انتقل - رحمه الله - إلى الحديث عن أحداث ومواقف في ميدان المعركة، فيقول: وكانت عادة العرب في الجاهلية أن يبدأوا معاركهم بلقاء الفرسان والأبطال في المبارزة رجل لرجل، فخرج

(١) بدر، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان د. محمد عبده يماني (ص ٣٤-٣٥)

(٢) بدر، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان د. محمد عبده يماني (ص ٣٥-٣٦)

عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، فدعا إلى المبارزة، ولم يلتفت إلى قول من قال له: تنهى عن شيء وتكون أول من يأتيه، فقد كان قبل ذلك يدعو الناس إلى الرجوع ونبذ القتال، ويتعهد ويتكفل بدية حليفه عمرو بن الحضرمي وماله، فسخر منه أبو جهل وسخر منه سفهاء قريش، فكأنه أراد أن يثبت للقوم أنه أكثرهم شجاعة وإقداماً وأن دعوته للمسالمة لم تكن عن خوف أو جبن، فخرج لهم شباب من الأنصار قيل هم عوف ومعوذ ابنا الحارث وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، فسألهم عتبة: من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم حاجة، ثم نادى مناد يا محمد: أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال ﷺ: "قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي"، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ قال عبيدة ﷺ: عبيدة، وقال حمزة ﷺ: حمزة، وقال علي ﷺ: علي، قالوا: نعم، أكفاء كرام. فبارز حمزة شيبة، ولم يمهل أن قتله، وبارز علي الوليد فقتله علي، وبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة فاختلفا ضربتين، أثبت كل منهما صاحبه، وكر حمزة وعلي بأسيا فهما على عتبة فأجهزا عليه، وحملا على صاحبهما فحازاه إلى أصحابه.

وبعد أن حمل علي وحمزة عبيدة بن الحارث - رضي الله عنهم - جريحاً إلى جوار رسول الله ﷺ، وسدّه قدمه الشريفة، فسأل عبيدة النبي: أأنت شهيداً؟ فقال له رسول الله ﷺ: (أشهد أنك شهيد)، وتوفي ﷺ بالصفراء في رحلة العودة، ودفن بها (١).

(١) بدر، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان د. محمد عبده يماني (ص ٣٦)

عدل الرسول عليه الصلاة والسلام الصفوف وقال لهم: (إن دنا منكم القوم فانضحوهم - أرشقوهم - عنكم بالنيل، واستبقوا نبلكم - لا ترموهم عن بعد -، ولا تملوا السيوف حتى يغشوكم، ثم خطبهم وحثهم على الجهاد، ورجع إلى العريش ومعه أبو بكر رضي الله عنه يدعو ربه ويناشده أن ينجز للمؤمنين وعده، فجاءته البشرية بنزول الملائكة مدداً للمسلمين: (إِذ تَسْتَعِينُونَ رَبِّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي عُدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، وخرج الرسول الكريم صلوات الله عليه يتلو: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ).

الرسول القائد يقدم القدوة والأسوة لقادة المسلمين ورؤسائهم في كل زمان ومكان فقد أعد لكل شيء عدته بقدر طاقته ولم يدخر وسعاً ولا جهداً، فقد أعد جنده قبل المعركة معنوياً ونفسياً وجسدياً ثم أرسل الطلائع يتحسسونه له أخبار عدوه وأحوال القبائل من حول المدينة، بل وخرج بنفسه ليقوم مع الصديق بمهمة استطلاعية، وباختصار: ألمَّ بكل ما يهمله من أخبار جيش الأعداء ثم حرص على أن يدخل المعركة بجنود كلهم يعرفون عظم المهمة الملقاة عليهم ويقدرّون ما سترتب عليها من آثار، قلوبهم تتمنى الشهادة لعلمهم بما أعد للشهيد من الكرامة عند ربه، هم مؤمنون بعدالة القضية التي يحاربون من أجلها.

ثم اتخذ عدة خطوات عسكرية عبقرية، منها:

الاستيلاء على الماء، وحرمان الأعداء من الماء تأثير على قواهم المادية وروحهم المعنوية.

الأسلوب الجديد في الحرب الذي لم تألفه العرب وهو بالصفوف المتراصة المتلاحمة التي يترس فيها الجند بعضهم عن بعض ويحمي بعضهم بعضاً ثم يأمرهم بالبقاء في أماكنهم حتى يهاجمهم عدوهم وذلك ليحتفظوا بقوتهم الصغيرة متماسكة وحتى لا تتبدد.

ثم أمرهم أن يرموا عدوهم بالنبال إذا اقترب منهم ولا يرمونه من بعيد لكي لا تطيش سهامهم القليلة وتكون كل رمية بقتيل أو جريح.

هذا هو الأخذ بالأسباب، وبقي الجانب الروحي الإيماني فقد حرص النبي ﷺ على أن يعلم أصحابه أن النصر من عند الله مع الأخذ بالأسباب، فالله تعالى يقول لهم: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ).

وحين رأى المسلمون القتال قد نشب والتحمت الصفوف عجوا إلى الله بالدعاء يستمدون نصره وعونه فأمدهم الله تعالى بالملائكة، كما أمدهم بالقوة والثبات وألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، وكان إبليس قد تصور في صورة سراقه بن جعشم المدلجي يذمر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم من الناس، فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبه واختفى، وأقبل أبو جهل على أصحابه يحرضهم على القتال، ويقول: لا يغرنكم خذلان سراقه بن جعشم إياكم وإنما كان على ميعاد مع محمد وأصحابه، سيعلم إذا رجعنا ما نصنع بقومه، لا يهولنكم مقتل عتبة وشيبة والوليد فإنهم عجلوا وبطروا حين قاتلوا، وأيم الله لا نرجع اليوم حتى نقرن محمداً

وأصحابه في الحبال فلا ألفين أحداً منكم قتل منهم أحداً، ولكن خذوهم أخذاً. نعرفهم بالذي صنعوا لمفارقتهم دينكم ورغبتهم عما كان يعبد آباؤهم.

ولما التقى الصفان نادى نوفل بن خويلد بصوت رفيع، يا معشر قريش: اليوم يوم الرفعة والعلاء، يا معشر قريش: إن سراقه قد عرفتم قومه وخذلانهم لكم في كل موطن فاصدقوا القوم الضرب، فإني أعلم أن ابني ربيعة قد عجلا في مبارزتهما من بارزا، فقال له حين سمع صوته: (اللهم اكفني نوفل بن خويلد)، فلما انتهى القتال قال: من له علم بنوفل بن خويلد؟ فقال علي رضي الله عنه: أنا قتلته. فقال: (الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه).

وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى: ولما اشتد القتال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه قائلاً: (أعطني حصا من الأرض)، فناوله علي رضي الله عنه حصا عليه تراب فرمى به في وجوه القوم، وهو يقول: (شاهت الوجوه، اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم)، ثم قال لأصحابه: (شدوا). فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه من ذلك التراب شيء، ولم يبق مشرك إلا وانهزم، وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وحمل المسلمون على المشركين يصيبون ويثبتون، وكان هذه الحصباء التي ألقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوههم قد أصابتهم بالعمى، ونزلت الآية توضح أن الفعل الظاهر فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أخذ القبضة وألقى بها في وجوههم ولكن كم تبلغ هذه القبضة حتى تصيب كل واحد منهم بحصاة؟! وكم تبلغ قوة رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تصل إلى قاصيهم ودانيهم؟! إنها قدرة الله ضاعفت الحصى أضعافاً حتى

أصابتهم جميعاً وضاعفت من قوة الرمية أضعافاً كثيرة حتى وصلت إليهم جميعاً" (١).

وفي يوم بدر ظهرت بطولات فائقة على يد الصحابة الكرام يحدثنا عنها د. محمد عبده يماني، فيقول:

"وظهرت في هذه الموقعة عند اللقاء بطولات إيمانية رائعة من نفوس تطلب الشهادة لتحمي في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

فقد روي أن النبي ﷺ خرج إلى الناس فحرضهم فقال: (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدير إلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام رضي الله عنه: بخ بخ، ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف بتمرات كانت في يده وأخذ سيفه وقاتل.

كان حارثة بن سراقة رضي الله عنه قد سأل رسول الله ﷺ أن يدعو له بالشهادة حين استقبله عليه الصلاة والسلام، فدعا له رسول الله ﷺ، فكان أول شهيد من الأنصار في بدر، أصابه سهم وهو يشرب على الحوض.

وقال عوف بن الحارث ابن عفرأ: يارسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال عليه الصلاة والسلام: (غمسه يده في العدو حاسراً) فنزع درعاً كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل.

(١) بدر، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان د. محمد عبده يماني (ص ٣٦-٤١).

ومن أبطال بدر: علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد قتل وحده في ذلك اليوم اثنين وعشرين رجلاً.

ومن أبطال بدر: حمزة بن عبد المطلب عليه السلام، يروي عبد الرحمن بن عوف عليه السلام أنه حين أخذ أمية بن خلف أسيراً قال له: إني رأيت رجلاً فيكم اليوم معلماً في صدره ريشة نعامة من هو؟ قلت: حمزة بن عبد المطلب، فقال: فذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

وكان علي عليه السلام يقول: إني يومئذ - يوم بدر - بعدما ارتفع النهار وقد اختلطت الصفوف خرجت في أثر رجل منهم، فإذا رجل من المشركين على كتيب وسعد بن خيثمة وهما يقتتلان، حتى قتل المشرك سعد بن خيثمة، والمشرك مقنع في الحديد، وكان فارساً، فاقتحم عن فرسه فعرفني وهو مُعَلَّم ولا أعرفه، فناداني هلم ابن أبي طالب للبراز، قال: فعطفت عليه فانحط إلى مقبلاً، وكنت رجلاً قصيراً، فانحطت راجعاً لكي ينزل إلي، فكرهت أن يعلوني بسيفه فقال: فلما استقرت قدمي وثبتُ أقبلي، فلما دنا مني ضربني، فاتقيت بالدرقة فوق سيفه فلزم فأضربه على عاتقه وهو دارع فارتعش، ولقد فض سيفي درعه فظننت أن سيفي سيقته فإذا بريق سيف من ورائي فطأطأت رأسي ويقع السيف فأطن قحف رأسه بالبيضة وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب: فالتفت من ورائي فإذا حمزة بن عبد المطلب" (١).

"أما بطل الأبطال وأشجع الشجعان فهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رآه الناس يتعقب المشركين يوم بدر وهو يتلو: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ

(١) بدر، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان د. محمد عبده يماني (ص ٤١ - ٤٤).

وَيُولُونَ الدبر)، وعن علي عليه السلام قال: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً.

وقد شد الله أزر المسلمين بالملائكة، فقتل من قتل من صنديد قريش وأسر من أسر، قالوا: وكان سيماء الملائكة يوم بدر عمائم قد أرخوها بين أكتافهم خضراء وصفراء وحمراء من نور والصفوف في نواصي الخيل. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الملائكة قد سومت فسوموا فأعلموا بالصفوف في مغفرهم وقلانسهم).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش، وأبو بكر الصديق وسعد بن معاذ في نفر من الأنصار والمهاجرين يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم يخافون عليه كرة العدو. فلما رأى سعد إقبال المسلمين على أسر المشركين تغير وجهه فسأله عليه صلى الله عليه وسلم: (فكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم؟)، فقال سعد: أجل يارسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله أهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال.

وفي هذا اليوم قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه - وكان مشركاً - فإن أباه قصده لقتله، فولى عنه أبو عبيدة لينكف عنه فلم ينكف، فرجع عليه وقتله، وفيه نزل قول الله تعالى: (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) (١).

(١) بدر، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان د. محمد عبده يماني (ص ٤٥).

مصراع عدو الله أبي جهل: لما رأت بنو مخزوم مقتل من قُتل من المشركين قالوا: أبو الحكم لا يخلص إليه، فإن ابني ربيعة قد عجلا وبطرا، ولم تحام عليهما عشيرتهما، فاجتمع بنو مخزوم وأحاطوا بأبي جهل، وجعلوه بينهم في حلقة حتى لا يصل إليه أحد، ثم بالغوا في الحرص عليه، فألبسوا لأمتة عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، فلقبه على بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقتله، وهو يحسبه أبو جهل، قتله، وهو يقول: خذها وأنا ابني عبد المطلب" (١).

القرآن وغزوة بدر:

كان في حياة النبي ﷺ العديد من المغازي والسرايا، ولا شك أن ما تناوله القرآن منها وعلق عليه له أهمية خاصة ومكانة مميزة تستدعي منا إطالة النظر فيه لاستخراج دروسه وفوائده، ومن ذلك: غزوة بدر، والتي لم يعلق عليها القرآن تعليقا عابرا أو مجملا، بل أنزل الله تعالى في شأنها سورة كاملة هي سورة الأنفال، فعن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر.

وقد تناولت تلك السورة العديد من المشاهد المتعلقة بهذه الغزوة وما اتصل بها من أمور كموضوع الغنائم والأسرى وعلقت عليها، ولفتت أنظار المؤمنين إلى العديد والعديد من القضايا والمسائل التي لها أثر عظيم في حسن تربيتهم وإعدادهم إبان تناولها للأحداث ومعالجتها لتفاصيلها.

(١) بدر، يوم الفرقان يوم التقى الجمعان د. محمد عبده يماني (ص ٤٦).

ومن أهم هذه القضايا التي تعرضت لها السورة الكريمة والتي
تعد من أهم دروس يوم بدر

أولاً: التأكيد على ضرورة الوحدة وأهمية إصلاح ذات البين:

إن الناظر في غزوة بدر وأحداثها يجد أن الصحابة الكرام بعد أن
مَنَّ الله عليهم بالنصر على قريش وقع بينهم تنازع واختلاف حول
الغنائم وآلية توزيعها، وهو ما استهلَّ القرآن حديثه به في بدء
تعليقه على الغزوة في سورة الأنفال، حيث قال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ...)
[الأنفال: ١]، فعلى الرغم من أن التنازع حصل بين الصحابة -رضى
الله عنهم- في توزيع الغنائم بعد انتهاء غزوة بدر وليس في أولها، إلا
أن القرءان بدأ به حديثه عن يوم بدر؛ مما يؤكد على أهمية الوحدة
بين المسلمين وعظيم أمرها وخطر الفرقة والتنازع.

والناظر في تعليق القرآن على مشهد اختلاف الصحابة بعد
الغزوة يجد أنه عمل سريعاً على رَأْب الصدع والقضاء على أسباب
الخلاف والتنازع بينهم، وقد كان ذلك من خلال:

حسَم سبب النزاع الذي وقع بين الصحابة -رضى الله عنهم-،
وهو الخلاف في أمر الغنائم؛ حيث وضح القرآن حكم الغنائم مبيناً
أن أمرها ليس لأحد منهم وإنما هو لله ورسوله دون غيرهما، وبذلك
قطع كلَّ سبيل يؤدي إلى الفرقة الناجمة عن الطمع في الغنائم التي
حصّلها المسلمون يوم بدرٍ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ
وَالرَّسُولِ) [الأنفال: ١].

الدعوة الصريحة إلى الوحدة وإصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الطامة الكبرى التي تؤدي إلى خراب المجتمعات (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) [الأنفال: ١].

الحث على الطاعة الدائمة لله ولرسوله ﷺ؛ لأنه لا فلاح بغيرها، وهي دليل الإيمان (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [الأنفال: ١].

التذكير ببعض صفات المؤمنين: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الأنفال: ٢ - ٤].

ولا شك أنّ الناظر في الصفات التي استعرضها القرآن هاهنا لا يجدها تمثل سائر أجزاء الإيمان التي دلّت عليها نصوص كثيرة، ولكنها صفات لها أهميتها في مقام الاختلاف

واهتمام القرآن بموضوع الوحدة ونبذ أسباب الفرقة في بداية السورة ومستهلّ تعليقه على أحداث الغزوة أمرٌ له أكد الدلالة على خطورة هذا الأمر وأهمية أن يلتفت المجتمع المؤمن إليه ويوليه قدرًا كبيرًا من العناية والاهتمام، فلا يسمح بظهور أسباب التفرّق والتنازع بين أفرادها، ويجتهد سريعًا في رأب الصدع ووأد الفتن التي قد ترد في هذا الشأن؛ حتى لا تتقطع أواصر المودة بين المؤمنين ويفسد ما بينهم من اتصال ولحمة ومن ثم يكونون عرضة للهزيمة ولشتى

الأمراض والعلل، وتاريخ المسلمين بوجه عام ناطق بخطر الوحدة؛ حيث يَبِينُ للناظر فيه سريعًا بأن جلّ المصائب والنكبات التي نالت من المسلمين قديمًا وحديثًا كانت بسبب التنازع والافتراق.

ثانيًا: كسر الغرور الذي قد يفرزه النصر:

يقع الإنسان فريسة في كثير من الأحيان للغرور بعد إحراز التقدم والنجاح، وتزداد سطوة الغرور عليه والإعجاب بذاته، خاصة إذا كان هذا الفوز كبيرًا أو غير متوقع، حينها تتعاضم النفس وتكبر وتمتلأ بالغرور حيث تشعر بفرادتها وتميّزها، وسيطرة هذه المشاعر على النفس قد تقطعها عن ربها وتنسيها فضله عليها، وهذه آفة قد تعرض النفس للفساد، وقد تقطع عنها استمرار فضل الله عليها ودوام توفيقه لها. كما أنّ هذه الآفة قد تعرّض صاحبها للدمار.

لقد سعى القرآن إلى لفت الأنظار إلى ضرورة كسر غرور النفس، وذلك في غير ما موضع من تعليقه على أحداث الغزوة، ومن ذلك:

التذكير بأن الله هو المدبّر على الحقيقة: وهو ما أكدت عليه آيات السورة كثيرًا؛ فالله تعالى هو الذي قوّاهم بالملائكة (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ) [الأنفال: ٩]، وهو الذي قتل عدوهم (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) [الأنفال: ١٧]، وهو الذي أضعف الكافرين (دَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) [الأنفال: ١٨]. ولا شك أن التذكير بيد القدرة التي وقفت خلف الأحداث أمرٌ له دوره في ردّ النفس إلى موضعها، وكسر لغرورها، ومنع لها من

الاسترسال وراء وهم الشعور بأنها سبب الانتصار والعنصر الفاصل في تحقيقه وحيازته.

التذكير بحالة الضعف السابقة للمؤمنين: وهو ما بينته السورة وأكدت عليه؛ حيث ذكرت الصحابة بماضيهم القريب حينما كانوا مستضعفين يخافون من الناس، فكان الله تعالى هو من آواهم ونصرهم ورزقهم (وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [الأنفال: ٢٦]. وكذا جرى التذكير بحدث الهجرة وما كان من تأمر المشركين، وكيف نجى الله دعوته منهم (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال: ٣٠].

إنَّ ضرورة الوحدة وإصلاح ذات البين وأن تكون النفوس معلقة بربها ومنتجهة لخالقها وعارفة بفضله أمور لها أهميتها وضرورتها في سلامة المجتمع المؤمن وصحته من الآفات التي قد تؤدي به؛ ومن ثم اهتمت سورة الأنفال من بين ما اهتمت بالتأكيد عليهما أثناء تناولها لأحداث غزوة بدر وتعليقها على مشاهدتها، فبغير الاتحاد تنهزم المجتمعات وتضعف وتصبح عارية من أسباب القوة التي تواجه بها شتى الأخطار من حولها، وبغير العرفان الدائم بفضل الله تعالى بعد النجاح يركبها الغرور فلا تستأنف السَّيْر الراشد في تقوية صقِّها وتحسس مواضع قصورها وتبيّن مكامن الزلل، كما لا تكون محلًّا قابلاً لاستدرار فضل الله عليها وتنزل بركاته في ساحاتها.

الفصل الرابع

غزوة الأحزاب وعبقرية سيدنا علي بن ابي طالب فيها

غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب من أعظم المعارك التي خاضها المسلمون في تاريخهم، حيث واجه المسلمون تحالفًا غير مسبوق من أعدائهم الذين اجتمعوا في محاولة للقضاء على الدين الإسلامي في المدينة المنورة.

وقعت غزوة الخندق في شوال من السنة الخامسة للهجرة (الموافق ٦٢٧م)، وتميزت بابتكار تكتيكي جديد في الحروب العربية حين اقترح الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه حفر خندق حول الجهة المكشوفة من المدينة لحمايتها من هجوم الأحزاب.

وجاءت غزوة الأحزاب نتيجة الحقد الذي اشتعل في نفوس قريش وحلفائها من اليهود بعد أن طرد المسلمون بني النضير، وكان الرد بتكوين تحالف مكون من قريش وغطفان وبني أسد وسليم، إلى جانب يهود بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وانضموا للأحزاب في حصارهم للمدينة. وبالرغم من قلة عدد المسلمين وحالة الحصار القاسية، إلا أن ثباتهم وابتكارهم الاستراتيجي منحهم النصر، إذ شتت الله جيوش الأحزاب بريح شديدة، مما أوقع الرعب في قلوبهم وحقق للمسلمين نصرًا عظيمًا.

وكان عدد المسلمين الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم قرابة ثلاثة آلاف مقاتل، وعدد الصحابة الذين استشهدوا فيها ثمانية، وكان منهم زعيم الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه حيث أصيب في أكحله، وبني له

المسلمون خيمةً في المسجد، ومات بسبب جرحه، بينما بلغ عدد المشركين قرابة عشرة آلاف مقاتل، وكان أربعة آلاف منهم من قريش وأحابيشها، ومن تبعهم من عرب كنانة وأهل تهامة، وقادوا معهم ثلاثمئة فرس، وألفاً وخمسمئة بعير، وسبعمئة مقاتلٍ من بني سليم، وألف مقاتلٍ من قبائل غطفان، وأربعمئة مقاتلٍ من بني مرة، وأربعمئة مقاتلٍ من بني أشجع، وخرج معهم قومٌ آخرون، وقتل من المشركين ثلاثة رجال، وهم: عمرو بن عبد ود العامري، وابنه حسل، ونوفل بن عبد الله المخزومي.

أرسل الله تعالى على الأحزاب ريحاً شديدةً وباردةً، فقلبت قُدورهم وخيامهم، وشعر المشركون بالرُّعب، وارتحلوا من مكانهم، وقد قال الله تعالى واصفاً هذا المشهد في كتابه الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا* إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا)، وانتهت غزوة الأحزاب بنصر الله تعالى للمؤمنين بالرغم من قلة عددهم، وأيدهم بجندٍ من عنده، وأمدهم بالثبات والطمأنينة، فكانت الغزوة عبارةً عن معركة أعصاب ولم تكن معركة خسائر؛ لأنه لم يجري فيها قتالٌ كبيرٌ، فانتهت بتخاذل المشركين، وقويت شوكة المسلمين، لقول النبي ﷺ: (الآن نَغزُوهُمْ وَلَا يَغزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ).

لقد حملت آيات سورة الأحزاب مشاهد من غزوة الأحزاب، ووصفت الأحداث وصفاً دقيقاً، فهي الآيات تبرز لنا وصفاً عاماً

للغزوة، يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) [الأحزاب: ٩]. في هذه الآية الكريمة وصف عام للغزوة، حيث يذكر الله سبحانه وتعالى فيها المؤمنين بنعمته عليهم، ويمتن عليهم، إذ صرف عنهم أعداءهم، حين جاءت جنود الأحزاب وتجمعت لإبادتهم، والقضاء عليهم، واستئصال شوكتهم، فأرسل الله على الأحزاب ريحًا، وملائكة لم يروها، فزلزلتهم، وألقت الرعب في قلوبهم، وقلعت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وسفت التراب في وجوههم، فكان للملائكة دور كبير في نجدة المسلمين، وكانت الريح أبرز الجنود التي حسمت المعركة، عن ابن عباس قال: قال ﷺ: (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور).

وكان الله مطلعًا على المؤمنين، عليًا بجميع أعمالهم، من حفر الخندق ومقاساة الشدائد، والاستعداد للقتال، والتحرز من العدو، وهو يجازيهم عليها.

إن القرآن الكريم ومن خلال آيات غزوة الأحزاب، يرسخ في القلوب والنفوس الاعتقاد الصحيح، والتصور السليم، بأن النصر كله بيد الله، وأن الله ينصر عباده المؤمنين المخلصين، فالمسلمون اليوم مطالبون بترسيخ هذه المفاهيم الصحيحة، والارتكاز إلى الإيمان الصادق، وأن يستمدوا العون من الله سبحانه وتعالى، وأن يردوا أمرهم كله لله.

لقد تناول د. محمد عبده يماني هذه الغزوة من عدة زوايا، ومنها: حال المؤمنين يوم الأحزاب، وعبقرية سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ الحربية، والابتكار التكتيكي لسيدنا سلمان الفارسي ﷺ الذي قلب موازين المعركة، كل ذلك مصحوب بمدد الله وتوفيقه، فيقول رحمه الله:

"ولا تصوير أدق وأصدق من قول الله تعالى: (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)، وقد تجلت في هذه الغزوة عبقرية علي كرم الله وجهه الحربية لأول مرة في أروع مظاهرها، وذلك حين طلب عمرو بن عبد ود مبارزاً، فقام إليه يستأذن رسول الله ﷺ في مبارزته، فقال له: إنه عمرو، فقال علي: وإن كان عمراً، فأذن له مبارزته فقتله، وكان الخندق - الذي حفره المسلمون بإشارة سلمان الفارسي ﷺ في السهل الواقع شمال غرب المدينة، والجانب المكشوف الذي يخاف منه التحام العدو حائلاً بين المسلمين وبين قريش وغطفان الذين بلغ عددهم عشرة آلاف.

وأقبلت فوارس من قريش تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق. فلما رأوه قالوا: والله إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في أرض المعركة التي نزل بها المسلمون، ومنهم الفارس المشهور عمر بن عبد ود الذي كان يقوم بألف فارس، فلما وقف قال: من يبارز؟ فبرز علي بن أبي طالب كرم

الله وجهه فقال: يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه. قال عمرو: أجل. قال علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال عمرو: لا حاجة لي بذلك. قال علي كرم الله وجهه: فإني أدعوك إلى النزال. فقال عمرو: لم يا ابن أخي؟ فو الله ما أحب أن أقتلك. قال علي: لكني والله أحب أن أقتلك. فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي عليه السلام، فتنازلا وتجاولا، فقتله علي عليه السلام.

وتعجب المشركون في ذهول مما حدث، أيقتل الفتى الشاب علي بن أبي طالب، عمرو بن عبد ود الذي قدمه المشركون للمبارزة؛ لأنه أفضل الفوارس عندهم وأقواهم.

وانتشر الخبر - خبر مقتل عمرو بن عبد ود. وتلقته الزهراء رضي الله عنها بقلب فرح، فقد خلص زوجها المؤمن، وأبو أولادها، خلص المؤمنين من شر فارس عتيد، وبرزت على ساحة المسلمين قوة زوجها وجلده وشكيمته.

ووضعت الحرب أوزارها بعد ما حدث خلاف بين بني قريظة - الذين حالفوا قريشاً - وبعد أن بعث الله على الأحزاب الريح العاصفة في ليال شاتية باردة، تقلب قلوبهم، وتطرح أبنيتهم.

ولم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم).

عاد المسلمون في غزوة الأحزاب وسط تكبير وتهليل، وخرج من في المدينة لاستقبال الأبطال العائدين، وكانت فرحة الزهراء رضي الله عنها لا توصف برجوع بطلها المغوار وبطل المسلمين زوجها الميمون علي كرم الله وجهه. وعاد الزوج الحبيب إلى زوجته الطاهرة، وولده الحسن الذي اعتنقه وتعلق في رقبته، وحنا على ولده الرضيع الحسين وحمله بين يديه، وأخذ يقبله تقبيلاً حاراً، ثم أمضوا ليلة سعيدة مباركة احتفالاً بنصر المسلمين وببطولته الفذة" (١).

(١) إنها فاطمة الزهراء د. محمد عبده يماني (ص ٢٢١-٢٢٣).

الفصل الرابع

قضايا وشبهات وردود

المبحث الأول

أ- قضية ختم النبوة وانقطاعها بعد رسول الله ﷺ بين الحقيقة والإدعاء

"رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء، لأنه لا نبي بعده، وهو خاتم المرسلين فلا رسول بعده، وذلك لأن أي رسول لا بد أن يكون نبياً، فما دامت النبوة قد ختمت، فهو خاتم الأنبياء، وبالتالي كذلك هو خاتم المرسلين، ومن الناحية الأخرى، فإن الوحي إنما كان للأنبياء، فبوفاته ﷺ انقطع الوحي فلا وحي، وهذا يثبت عدم صحة الادعاءات التي يدعيها هؤلاء مثل البابيين، والبهائيين، وغيرهم من أنهم يوحى إليهم، فهذا أمر غير صحيح إذ لا وحي بعد رسول الله ﷺ، فقد انقطع بختم النبوة.

ولكي نستمر في هذا النقاش بهدف الوصول إلى الحقيقة، دعونا ننظر في كتاب الله عز وجل، ونقرأ بتمعن الآيات التي تعتبر الحكم الفصل في هذه القضية والتي توضح أن النبوة - كما ذكرنا - هي شرط لإرسال الرسل، فكل رسول لا بد أن يكون نبياً - كما ذكرنا - ولا يشترط أن يكون جميع الأنبياء من المرسلين، لأن هناك كثير من الأنبياء الذين اختارهم الله عز وجل، وظلوا أنبياء ولم يرسلوا إلى أي أمة أو قوم. ولو تتبعنا الآيات من سورة الأعراف لوجدنا أن الله تعالى يقص على رسوله طائفة من أخبار الأنبياء والمرسلين، وكيف أنهم جوبهوا بالمعارضة الشديدة، وأصابتهم المحن القاسية من أقوامهم وقراهم التي أرسلوا إليها، فهذا نوح (قال يا قوم ليس بي ضلالة...) الآية، وهذا هود (قال يا قوم ليس بي سفاهة) الآية، وهذا صالح

قال الملاء الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم) ... الآية، ولما ذكر لوطا في سياق هذه الآيات وصفه بالوحي والنبوة وأسند إليه في آية أخرى: (وإن لوطا لمن المرسلين)، وبعد أن وصفهم في الآيات السابقة بالرسالة - كما رأينا - ذكرهم مباشرة بصفة النبوة حيث يقول: (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون)" (١).

"أما السنة النبوية فقد وصلنا عن طريق التواتر القطعي أنه لا نبي ولا رسول بعد رسول الله ﷺ، قال الإمام ابن كثير: (وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله في حديث جماعة من الصحابة رضی الله تعالى عنهم).

ونشير هنا إلى حديث رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الرسالة والنبوة قد انقطعا فلا رسول بعدى ولا نبي) ويقول الإمام ابن كثير: (والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ، ثم تشريفا لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي من بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ولو تخرق وتشعوذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم فكلها محال وضلال عند أولى الألباب).

(١) أنها فاطمة الزهراء د. محمد عبده يماني (١٢٤ - ١٢٥).

إن الأمة الإسلامية أجمعت على هذه العقيدة الإسلامية السماوية الجوهرية المبنية على القواعد الراسخة التي استعرضناها معكم.

فالصحابة والتابعون الذين هم سرج هذه الملة، وهم النجوم التي يقتدى بها، الهادون المخلصون الذين وصفهم الله بالهداية والخضوع، وقد أجمعوا على هذا الأمر ولم يرو التاريخ أن أحدهم شك في الدين الإسلامي، أو خرج على الأمة، وكذلك علماء الدين من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والكلاميين والمتصوفة في جميع الأقطار الإسلامية، وعلى مدى عصورها المختلفة قد آمنوا بختام النبوة وانقطاع الرسالة إيماناً قاطعاً، مع أنهم مختلفون في طرائق تفكيرهم، متباينون في مناهج أدلتهم ودراساتهم مما أدى إلى اختلافهم في كثير من القضايا الكبرى في الإسلام، سوى هذه القضية الجوهرية فإنهم متفقون عليها بالإجماع، فالكندي وابن سينا، والفارابي، وابن رشد، و ابن طفيل، وابن مسكويه والأفغاني من الفلاسفة، والعلاف والنظام والجاحظ والأشعري والماتريدي والباقلاني والتفتازاني ومحمد عبده من المتكلمين، وأبوداود وابن حزم من أهل الظاهر، والبخاري ومسلم وأصحاب السنن والمسانيد وابن تيمية، وابن القيم من المحدثين والطبري والبغوي والزمخشري والقرطبي وابن كثير والشوكاني والألوسي والسيد رشيد رضا، من المفسرين، وأبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وسفيان والليث من الفقهاء، والغزالي وجلال الدين وإقبال من المتصوفة كلهم وعشرات آخرون غيرهم مجمعون على هذا، ويكفرون كل شخص يدعى الرسالة والنبوة بعد سيدنا محمد ﷺ.

ولا شك أن المتتبع للأحاديث النبوية الشريفة، التي وردت متواترة في موضوع ختم النبوة يلاحظ أنها على الرغم من أنها وردت في مناسبات مختلفة، إلا أنها جميعا تؤكد على حقيقة واحدة أن رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ودعونا نستعرض بعضا منها، مع التحليل هنا، وفي المناسبة التي ورد فيها الحديث:

(أ) عندما تحدث النبي ﷺ عن بني إسرائيل وكيف تعاقبت فيهم الأنبياء، لسياستهم، ورعايتهم، لم يسكت رسول الله ﷺ حتى لا يقول الناس أن هذه الأمة ليست بأقل من بني إسرائيل، وأنه ما دام قد جاءت فيهم نبوات متعاقبة لرعايتهم، وسياستهم، فإنه سيكون فيهم. ولكن رسول الله ﷺ لم يترك الأمر من غير بيان، بل وضح القضية وبينها، وذلك لئلا يتدنس وجه عقيدة ختم النبوة بأية شبهة، فذكر ﷺ أن هذه الأمة تختلف عن بني إسرائيل من هذه الناحية لأنه لم يعد هناك نبوات بعده وإنما سيكون في هذه الأمة خلفاء، يخلفونه في رعاية أمته ودينه.

(ب) عندما ترك عليا ﷺ في المدينة في غزوة تبوك وأرجف المنافقون في ذلك، فطمأنه في ذلك ﷺ بأن بقاءه في المدينة لا ينقص من شأنه، وأن هذه القضية شبيهة بقضية هارون مع أخيه موسى ... فأخبر أنه لا نبي بعده. وبذلك تبقى هذه العقيدة نقية صافية عن كل ما يكدرها.

(ج) وهو يودعهم ﷺ ويوصيهم بكتاب الله عز وجل، وذلك في حجة الوداع كما في حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ واهتمامه ﷺ بذكر

انقطاع النبوة في هذا الموطن يدل على خطورة ذلك الأمر، وأن الأمة ينبغي ألا تنسى تلك القضية وهو كونه ﷺ خاتم الأنبياء ولا نبى بعده.

(د) في مرض موته وقبل وفاته ﷺ وهو منعطف الوداع الذي سيودع فيه أمته، ويلقى ربه، فأراد أن يترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، ولحرصه ﷺ على تثبيت عقيدة ختم النبوة في نفوس أصحابه وأمته من بعده فإنه ذكرهم بهذه القضية في هذا الموقف الأخير لكي يبقى هذا الأمر واضحا جليا، وقد كان كما أراد ﷺ (١).

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: (إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون هلا وضعت اللبنة، قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين) رواه البخاري واللفظ له. وعن أبي سعيد الخدري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: (مثلى ومثل النبيين من قبلى كمثل رجل بني دارا فأتها إلا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة).

هذه الأحاديث تتناول قضية الختم من طريق التشبيه الذي هو أقرب الأساليب إلى الفهم، فيشبه النبي ﷺ النبوة ببيت لبناته هم أنبياء الله عز وجل الذين اختارهم قبل نبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأن البيت قد بني وكمل ولم يبق فيه إلا موضع

(١) البابية د. محمد عبده يماني (ص ١٢٨ - ١٣١)

لبنة واحدة، لا يزال البيت بدونها ناقصا فجاء رسول الله ﷺ فكمل ذلك البناء وسد ذلك المكان، ولم يبق ثمة موضع آخر للبنة أخرى.

وقد حذر الرسول صلوات الله وسلامه عليه المسلمين ونبههم إلى أنه سوف يظهر من بعده وعلى فترات متفاوتة بعض الأعداء الذين يدعون النبوة، فقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعمون أنه رسول الله) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وأبو داود، وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي) رواه الترمذي وابن ماجه، وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم) رواه مسلم وأحمد، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابا رجالا، كلهم يكذب على الله عز وجل ورسوله) رواه أحمد في مسنده.

ولم يكتف عليه الصلاة والسلام في تقريره لعقيدة ختم النبوة بتأكيدھا وتنويع الأساليب التقريرية في ذلك فقط، بل من شدة حرصه رضي الله عنه أخبر بما ستعرض له الأمة من الفتن في هذه العقيدة التي لن يرضى عنها أعداء هذه الأمة لأنها تحول بينهم وبين تمزيق وحدة الأمة أو تلبس دينهم عليهم فأخبر رضي الله عنه بأنه سيخرج في هذه الأمة أعداء كذبة يدجلون على الناس ويخدعونهم ويدعون أنهم أنبياء ورسول فينبغي على الأمة أن تحذر فتنهم ولا تنخدع بدعاويهم الباطلة.

والحق أن المجوس واليهود والصهاينة الذين أكل قلوبهم الحقد على نبي الاسلام كانوا يخبرون دائما أن نبيا سيظهر في آخر الزمان أو أنهم أوعزوا إلى بعض المعتوهين وضعاف العقول بادعاء النبوة كي يعوضوا بهذه الأساطير الهزيمة الكبرى التي لحقتهم وملكهم الذي فقدوه وعروشهم التي كانت تقوم على الشرك وعبادة النار والظلم واستغلال الناس والتي تهاوت أمام النور الإلهي المتمثل في الشريعة الإسلامية السمحاء التي أرسل الله عز وجل بها رسوله الكريم سيدنا محمد ﷺ، يقول تعالى: (يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا).

وتبقى الحقيقة ثابتة أن رسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ورسالته هي خاتمة الرسالات، والقرآن هو دستور الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد تكفل الله بحفظه كما أن رسول الله ﷺ أرسله الله إلى العالمين، وهكذا تمم الله به الدين وجعله خاتم النبيين والمرسلين" (١).

(١) البابية د. محمد عبده يماني (ص ١٢٨ - ١٣٤).

ب- دلالات ختم النبوة

عند استعراض ما كتبه علماء التفسير عن دلالات ختم الرسالة نجد أن أكثر ما توقف عنده المفسرون هو تقرير مقتضى ختم النبوة من انقطاع الوحي وانتفاء بعث نبي أو رسول فيما يأتي من الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولا يكاد اهتمام المفسرين يتجاوز الإشادة باكتمال الرسالة وتمام الهداية وبيان الفضل والمزية للرسالة الخاتمة. كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتِّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِّرْتُ بِالرَّعْبِ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَأُرْسِلْتُ لِلنَّاسِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ".

ومن دلائل ختم النبوة:

أولاً: انقطاع الوحي، وامتناع صدق من يدعي النبوة والتلقي المباشر عن الله سبحانه. لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة"، ومعلوم أن الرؤيا الصالحة كرامة وبشارة خاصة ولا تعتبر دليلاً شرعياً ملزماً لغير صاحبها.

ثانياً: عالمية الرسالة. فقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافةً، فالقرآن يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [سبأ: ٢٨]. ويأمره أن يخاطب الناس ويقول: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) [الأعراف: ١٥٨]. فختم النبوة يعني ولادة أمة إنسانية

واحدة هي أمة الدعوة وهي مناط التكليف بالرسالة على اختلاف وتنوع ألسنتها وأعرافها وثقافتها.

ثالثا: استمرار وجود الدليل على صدق الرسالة وصدق الرسول إلى أزمان تتجاوز الجيل الذي عايش بركات الوحي ومعجزات التأييد بخوارق العادات، وقد أجمع العلماء أن المعجزة الخالدة الدائمة الدالة على صدق الرسول ﷺ والرسالة الخاتمة هي القرآن الكريم الذي تحدى البشر أن يأتوا بمثله أو أن يأتوا بسورة من مثله، وجعل هذا التحدي قائماً دائماً دائماً يخاطب البشرية في مختلف عصورها وأزمانها ولغاتها وثقافتها. قال رسول الله ﷺ: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة".

رابعا: استمرار جهود انتشار الدعوة وتبليغ الهدى للناس على اختلاف أزمانهم وأوطانهم بعد غياب النبي الخاتم. ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا أن يستشعر المؤمنون مسؤوليتهم عن نشر الرسالة وتبليغ الهدى بكل الوسائل الممكنة. فالرسول ﷺ يقول: "نَصَّرَ اللَّهُ امراً سمع منا حديثاً فبلغه غيره، فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربَّ حامل فقه ليس بفقيه".

خامسا: إقامة الحجّة على الناس ببيان يفهمونه وهدى يدركون معانيه، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) [إبراهيم: ٤]. وقد امتنَّ الله سبحانه على العرب أنه أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، يعرف طباعهم ويفهم طبيعتهم ومواضع

حساسياتهم فوصفه الله تعالى بأنه (عَزِيْزٌ عَلَيِّهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيْمٌ) [التوبة: ١٢٨].

سادسا: انتهاء مرحلة الهلاك الجماعي للأقوام المكذبين، وتتحكم في مصير البشرية سنن التدافع والاستبدال. ومما يشهد لهذا الفهم ما رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها. وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي فأهلكها وهو حي ينظر فأقر عينه بهلاكها حين كذبوه وعصوا أمره".

ج- موقف البابين والبهايين من ختم النبوة

يعتبر ميرزا علي محمد الشيرازي (المولود في عام ١٨١٩م) هو مؤسس فرقة البابية، وكلمة ميرزا كلمة فارسية تعني السيد، والمقصود أن صاحبها ينتمي إلى سلالة آل البيت، والشيرازي نسبة إلى مدينة شيراز بإيران، وهي التي وُلد بها.

تلقى الميرزا علي محمد تعليمه الأول على يد دعاة الشيخية من الشيعة، ثم انقطع عن الدراسة ومارس التجارة، وفي السابعة عشرة من عمره عاد للدراسة، وذهب إلى بغداد، وبدأ يرتاد مجلس إمام الشيخية في زمانه: كاظم الرشتي، ويدرس أفكاره وآراء الشيخية.

وعندما بلغ الميرزا علي محمد الخامسة والعشرين أعلن أنه الباب للإمام الغائب عند الشيعة؛ وهو محمد بن الحسن العسكري، الإمام الثاني عشر عند الشيعة، وبعد ذلك أعلن أنه أكبر من أن يكون واسطًا للإمام الغائب، فأعلن أنه المهدي المنتظر، وأن جسد المهدي قد حلَّ فيه، وأنه يظهر الآن ليملاً الدنيا عدلاً، بعد أن ملئت ظلمًا وجورًا، أمرت الحكومة الإيرانية باعتقاله، في شيراز ولكنه استطاع الهرب بعد ستة أشهر، ووصل إلى أصفهان، وهناك أعلن أنه نبي، وأن الله أنزل عليه كتابًا، يسمى البيان، استمرت الدعوة إلى البابية، حتى أصبحت خطرًا يهدد الدولة الإيرانية، فقامت الحكومة باستئصال اتباع البابية، وأعدمت ميرزا علي محمد الشيرازي، رميًا بالرصاص، في عام ١٨٥٠م.

أما البهائية فهي امتداد للبابية، ويعتبر الميرزا حسين علي النوري الملقب بهاء الله، هو مؤسس البهائية، وُلد حسين عام ١٨١٧م، بعد أن أتم حسين علي تعليمه الابتدائي، انصرف إلى التعاليم الصوفية، واشتهر منذ صغره بالاشتغال بالعلوم والتباحث مع العلماء، وكانت له معرفة بالروايات الشيعية، وخاصة المتعلقة بالمهدي المنتظر، تلقى بعد ذلك تعاليم البابية واعتنقها، وألف كتاب (الإيقان) في بغداد تأييداً للباب، ودفاعاً عنه، وكان في سن السابعة والعشرين من عمره، سجن بهاء الدين، بعد محاولة البابيين قتل شاه إيران، واستمر سجنه لمدة أربعة أشهر، أفرجت عنه الحكومة الإيرانية بعد تدخل الحكومة الروسية، بشرط أن يغادر إيران، فرحل إلى بغداد مع بعض البابيين، حتى كبرت شوكتهم، ونتيجة كثرة الخلافات بينهم وبين المسلمين، أمر الخليفة العثماني بنقل البهائيين إلى إستانبول بتركيا، وهناك أعلن بهاء الله أنه الموعود الذي أخبر عنه الباب، ميرزا علي محمد الشيرازي، وتسمى أتباعه منذ ذلك الوقت بالبهائيين، أخذ بهاء الله يتنقل بين عكا وحيفا وبهجة بفلسطين إلى أن مات، بعد إصابته بالحمى، وذلك في ٢٨ مايو عام ١٨٩٢م، ودفن ببهجة قرب عكا، وعهد بالأمر من بعده لابنه عباس، الذي سماه عبد البهاء.

ومن معتقدات البهائيين: أن الباب هو الذي خلق كل شيء بكلمته، ويقولون بالحلول والاتحاد، والتناسخ وخلود الكائنات، وأن الثواب والعقاب إنما يكونان للأرواح فقط على وجه يشبه الخيال، ويوافقون اليهود والنصارى في القول بصلب المسيح، كما ينكرون معجزات الأنبياء وحقيقة الملائكة والجن كما ينكرون الجنة والنار،

ويحرمون الحجاب على المرأة، ويحللون المتعة، وشيوعية النساء والأموال، بالإضافة إلى أنهم يؤولون القرآن تأويلات باطنية ليتوافق مع مذهبهم، ويقولون إن دين الباب ناسخ لشريعة محمد ﷺ، وينكرون أن محمداً خاتم النبيين مدعين استمرار الوحي، وقد وضعوا كتباً معارضة للقرآن الكريم مليئة بالأخطاء اللغوية، والركاكة في الأسلوب (١).

حكم الإسلام في البهائية: صدرت الفتاوى من المجمع العلمية، وفي مقدمتها دار الإفتاء المصرية، وهذه فتواها: "البهائية أو البابية مذهب مصنوع مزيج من أخلاط الديانات البوذية والبرهمية، والوثنية والزرادشتية، واليهودية والمسيحية والإسلامية، ومن اعتقادات الباطنية، والبهائيون لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، ولا بالجنة، ولا بالنار، وهم بهذا لا يعترفون بنبوة سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وأنه خاتم النبيين، وبهذا ليسوا من المسلمين، وأجمع المسلمون على أن العقيدة البهائية أو البابية ليست عقيدة إسلامية، وأن من اعتنق هذا الدين ليس من المسلمين، ومرتبداً عن دين الإسلام، واتفق أهل العلم كذلك على أن عقد زواج المرتد يقع باطلاً، سواء عقد على مسلمة، أو غير مسلمة، كذلك لا يحل للمسلمة الزواج ممن اعتنق البهائية ديناً، والعقد إن تم يكن باطلاً شرعاً، والمعاشرة بينهما تكون زناً محرماً في الإسلام (٢).

١ (ينظر: موسوعة الفرق والمذاهب، وزارة الأوقاف المصرية، (ص١٣٩- ١٥٨)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (١/٤٠٩-٤١٥).
٢ (فتاوى دار الإفتاء المصرية (٨/٢٩٩٩)، فتوى رقم (١١٨٢).

ومن هذا التعريف بالبابية والبهائية ظهر أن من أهم معتقداتهم: إنكار ختم النبوة بمحمد ﷺ، وتأويل القرآن بتأويلات باطنية تتوافق مع مذهبهم، لذا وضعوا كتبًا معارضة للقرآن الكريم ركيكة في أسلوبها، مليئة بالأخطاء اللغوية.

وقد ناقش د. محمد عبده يماني هذه القضية ورد دعوات أصحابها المنحرفة الذين يحاولون استغلال عقول البسطاء للترويج لأفكارهم حول ختم النبوة، وذلك بأسلوب علمي مبسط، فذكر من الدلائل الشرعية والعقلية ما يؤكد بها على ختم النبوة بنبينا محمد ﷺ، واستحالة أن يكون هناك نبي بعده ﷺ شرعا وعرفا وعقلا، فقال:

"والآن وبعد أن استعرضنا قضية ختم النبوة وهو موضوع دقيق كما رأينا وخطير في نفس الوقت لأن أصحاب الدعوات المنحرفة كما ذكرنا تسللوا منه وسعوا إلى تحريفه وأخذوا يغمضون أعينهم عن حقيقة واضحة جلية، وأن من المصلحة دون شك أن تناقش هذه القضية من واقع كتبهم وآرائهم فهم يلجئون دائما إلى التشكيك والمغالطة، ففي نص الآية الصريحة التي توضح أن رسول الله ﷺ هو خاتم النبيين: (ما كان مبدءا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) فهو خاتم النبيين، ورسالته ختمت بها النبوة، ولذلك فالشريعة الإسلامية باقية ولا شريعة بعدها، وقد أكمل الله بها الدين، فيكون الحاصل عند أهل العقل أنه لا نبي، ولا رسول بعده ﷺ، إذ ليس هناك ما يكمل أو يتمم، فقد أكمل الله الدين، وليس هناك قوم لم تشملهم الرسالة فقد أرسله الله إلى

الناس كافة، وبرسالة كاملة تتم بها مكارم الاخلاق (إني رسول الله إليكم جميعا)، قال تعالى: (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا)، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ)، (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) فكل الآيات تؤكد أنه رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين، ولكن هؤلاء الأدعياء يحاولون -كما ذكرت- استغلال عقول البسطاء للترويج لأفكارهم حول ختم النبوة.

وهذا أولهم في موضوع مقالاتنا هذه وهو (الباب) الشيرازي الذي أسس الطائفة البابية.

ومن المنطلقات التي كان الباب ينطلق منها ويتلاعب فيها بالألفاظ موضوع ختم النبوة، فهو يدعى أن الرسول ﷺ كان خاتم الأنبياء ولم يكن خاتم المرسلين، ويريد أن يدلل بذلك أنه هو المرسل بعد الرسول ﷺ، ويسعى إلى تفسير الآيات بالطريقة التي تحقق هدفه، وعلى الرغم من أن كل محاولاته قد بدت ساذجة وغير مقنعة، ولكنها للأسف قد تنطلي على العامة والبسطاء خصوصا عندما نأتي لموضوع مثل ختم النبوة، ويدعى أنه هو المرسل بعد رسول الله ﷺ.

ونجد هؤلاء البابين يأتون إلى آيات قرآنية فيؤولونها تأويلا لا صلة له بموضوعها البتة وبلا أي دليل أو برهان من كتاب الله أو سنة الرسول سيدنا محمد ﷺ، وإنما يسطرون ما تفرضه عليهم خيوط مؤامراتهم القديمة التي بدأها الأحسائي من أجل ضرب الدين الإسلامي وتفتيت وحدة المسلمين - ولو نظرنا إلى ما مر من أحداث

منذ بعثة النور والهدى أى منذ البعثة المحمدية والمتأمرين على الإسلام كثيرون فقد ظهر على مدى الأربعة عشر قرنا كثيرون ممن أدعوا النبوة بدءً بمسيلمة الكذاب والأسود العنسى وانتهاءً بالباب الشيرازي والمرزا حسين على الذى لقب نفسه بالبهاء، ... ونجد أن هؤلاء الأدعياء الكذابين الذين افتروا على الله سبحانه وتعالى وافتروا على الرسول الكريم ﷺ يأولون كثيرا من آيات الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإنما هو تنزيل من لدن لطيف خبير، يأولون بعض الآيات بما يحقق أهدافهم الدنيئة ومؤامراتهم الخبيثة، فنجد بعض الباطنية يقولون في تفسير سورة الشمس، (والشمس وضحاها) أن الشمس معناها محمد، (والقمر إذا تلاها) أن القمر المقصود به على بن أبي طالب، (والنهار إذا جلاها) النهار قصد به الحسن والحسين، (والليل إذا يغشاها) يقصد بهم الأمويون (١)

يرى البابية والبهائية أن قوله تعالى: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) [الأحزاب: ٤٠]، ليست دليلا على ختم الرسالات بمحمد ﷺ لأن الله تعالى قال: (وخاتم النبيين) ولم يقل وخاتم المرسلين، ويرون أن (خَاتَمَ النَّبِيِّينَ) بمعنى الزينة وهي الحلي المعروف وليس آخر النبيين كما يقول المسلمون.

وللرد عليهم نقول:

أولا: إن الآية الكريمة نص في أن لا نبي بعده ﷺ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى؛ لأن مقام الرسالة

(١) البابية د. محمد عبده يماني (ص ١٣٥-١٣٧).

أخص من مقام النبوة، فإن كان كل رسول نبي ولا ينعكس لأنه يلزم من ختم النبوة وهي الأعم ختم الرسالة وهي الأخص، وهذا من بلاغة القرآن ودقة تعبيره حيث لم يقل وخاتم المرسلين لأنه لو قال كذلك لقال المتنبيون الكذابون، ولم يقل وخاتم النبيين على اعتبار خصوصية الرسالة ولكن الله قطع عليهم الطريق بقوله: (وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) [الأحزاب: ٤٠] لأن الرسالة مبنية على النبوة فإذا احتجبت النبوة احتجبت الرسالة معها وهذا على القول بالفرق بين النبي والرسول كما هو قول الجمهور قائلين إن النبي من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه والرسول من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، وقال بعضهم: إنهما مترادفان فلا فرق بينهما واستدلوا بالآيات والأحاديث التي أطلقت لفظ الرسول والنبي على رجل واحد فإذا كانا مترادفين فلا مستمسك للبهائية والقاديانية بأنه لم يقل وخاتم النبيين كما لا يخفى.

ثانيا: أن الله تعالى ذكر في القرآن آيات كثيرة تدل على انقطاع النبوة بعد نبينا محمد ﷺ، منها: قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة: ٣] الآية، فإنها دلت على أنه تعالى أكمل لهذه الأمة دينه من جميع الوجوه بحيث يكفي لكافة الورى إلى يوم الدين فلا حاجة لها إلى نبي بعد نبينا ﷺ ولا إلى دين غير دينها كما صرح به ابن كثير وعامة المفسرين وبالجملة فهذه الآية صرحت بختم النبوة وبه تجلى لك معنى الآية المذكورة.

ومنها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) [الأعراف: ١٥٨] فقد صرح بعموم بعثته لكافة الورى إلى يوم القيامة وهو إعلان بختم النبوة بعده ﷺ.

ومنها قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [سبأ: ٢٨] فقد دلت على عموم البعثة وختم النبوة. ومنها قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: ١٠٧] فإنه ﷺ لما كان رحمة للعالمين كافيا في هدايتهم فلا يحتاجون إلى الإيمان برسول أو نبي بعده ﷺ.

ثالثا: أن الله تعالى أنزل القرآن بلسان عربي مبين ويؤخذ تفسيره من القرآن أو السنة أو صحيح ما ورد عن الصحابة والتابعين، وإلا نرجع إلى اللغة العربية ويقبل المعنى المحتمل إذا لم يخالف التفسير المأثور عن النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالحين بإجماع المسلمين.

رابعا: لفظ الخاتم فيه قراءتان، الأولى وهي المشهورة التي اختارها جمهور القراء بكسر التاء، يطلق على معان: آخر القوم، وفاعل الختم، والطابع، والحلي المعروف بالأصبع، وخاتم القفا، أي نقرته. والثانية خاتم بفتح التاء، ويستعمل بمعنى آخر القوم، وبمعنى الطابع الذي يوضع على الطينة.

قال الشيخ محمد شفيع الديوبندي: وإذا استقرت معاني الخاتم والخاتم فانظر أيها يكون مرادا في الآية وأنت تعلم أن إطلاق الخاتم أو الخاتم على النبي بحسب المعاني الأخيرة لا يمكن إلا مجازا كما هو ظاهر غني عن البيان ولا حاجة إلى ارتكاب المجاز لجواز إرادة الحقيقة بالمعنى الأول والثاني بلا تكلف فتبين أن المعنى الأول أو

الثاني هو المراد في الآية لا غير سواء قرئ بفتح التاء أو بكسرها ثم مآل هذين المعنيين واحد فإن المعنى آخر النبيين على الأول والذي ختمهم على الثاني ومرجعهما ههنا واحد.

قال في (روح المعاني): خاتم النبيين الذي ختم النبيون به ومآله آخر النبيين وبمثله صرح الشيخ زاده في حاشيته على البيضاوي ثم ذكر بعض كلام علماء اللغة. اهـ .

خامسا: أن تفسير الآية بما فسره هذا الدجال يفتح باب النبوة على مصراعيه بعد خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ، والقرآن يرد هذا التفسير، وكذا أحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين ترد هذا الزعم الفاسد وتصفع وجه صاحبها وتقول له إنك لغوي مبين^(١).

وقد بلغت الأحاديث التي نصت على انقطاع النبوة والرسالة بعد سيدنا محمد ﷺ حد التواتر، كما أن المسلمين سلفا وخلفا بما فيهم من المذاهب المتعددة قد أجمعوا على أنه ﷺ خاتم النبيين والمرسلين وأنه لا نبي بعده إلى يوم الدين^(٢).

١ (بتصرف واختصار من: العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية لأحمد بن حجر آل

بوطامي- ص ٢٧٤ - ٢٨١

٢ (البهائية في الميزان

المبحث الثاني

زيد بن حارثة وقضية التبني

زيد بن حارثة بن شراحيل من قبيلة بني كلب، صحابي جليل، كان يدعى بزید بن محمد، ولُقِّب بحب رسول الله ﷺ لشدة حب النبي له. تبناه النبي ﷺ قبل بعثته لما اختار النبي ﷺ على أهله، ولما جاء الإسلام، وحرم الله التبني أصبح زيد مولى رسول الله، أنزل الله تعالى فيه آيات قرآنية لتكون تشريعاً لتحريم التبني، قال تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) [الأحزاب: ٣٧].

زَوْج النبي ﷺ زيدا لابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها، وبعد فترة طلقها زيد، وكان العرب يعتقدون أن آثار التبني هي نفس آثار البنوة الحقيقية، يرث ويعامل كالابن الحقيقي تماما، فأمر الله نبيه بالزواج من زوجة ابنه بالتبني لنفي هذا المفهوم الخاطئ من معتقدتهم، وأنزل الله تعالى قرآنا بتحريم التبني قال تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)، [الأحزاب: ٥]، فدعي منذ ذلك الحين بزید بن حارثة، وبعد نزول هذه الآية، وبعد تحريم التبني نسب كل من تبني رجلاً من قريش إلى أبيه.

والتبني كان معمولاً به في أول الإسلام ثم نسخ وحُرم، قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: قوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) أجمع أهل التفسير على أن هذه نزلت في زيد بن حارثة، وروى الأئمة أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ)، وفي قول ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، دليل على أن التبني كان معمولاً به في الجاهلية والإسلام يتوارث به ويتناصر إلى أن نسخ الله ذلك بقوله: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) أي: أعدل. فرفع الله حكم التبني ومنع من إطلاق لفظه، وأرشد بقوله إلى أن الأولى والأعدل أن ينسب الرجل إلى أبيه نسباً، ... وقال النحاس: هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبني وهو من نسخ السنة بالقرآن، فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه، فإن لم يكن له ولاء معروف قال له يا أخي، يعني في الدين، قال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [الحجرات: ١٠]. أهـ.

وقد تناول د. محمد عبده يماني هذه القضية بقصتها بداية من لحظة وصول زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بيت السيدة خديجة رضي الله عنها مروراً بزواجه من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها ونزول القرآن بشأنهما، إلى وفاته رضي الله عنه فقال:

"هذا سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه، هذا الابن المتبني للرسول صلى الله عليه وسلم، ولأمننا الكبرى خديجة رضي الله عنها، حيث ربته وعنيت به، فكان ذلك الرجل الذي لا يشق له غبار، ورعته زوج المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد أن

اشترته من سوق الرقيق - وهو من قبيلة كلب بني عامر، اختطفه المجرمون في غيبة عن أهله - وأحبه رسول الله ﷺ، وعامله المعاملة الكريمة.

ولما رأت السيدة الكبرى خديجة رضى الله عنها إحسان زوجها المصطفى ﷺ إليه وهبته له، فازداد حبه له، وازداد تعلق سيدنا زيد برسول الله ﷺ، فنسي أهله واعتبر رسول الله ﷺ والسيدة خديجة هما أهله وعشيرته، وظل بنو عامر يبحثون عنه أكثر من عامين حتى أعلمهم بعض من رآه مع سيدنا رسول الله ﷺ، وشرح لهم كيف يعامله، وأنه يرعاه خير رعاية، وسمع أبوه وعمه بفضل هذا النبي الكريم، وهذا الشريف من أشرف مكة، فذهبوا إليه وطلبوا منه أن يدفعوا له ما يطلبه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ابنهم منه، فرفض رسول الله ﷺ أن يفتيه بأي مال، وقال لهم: لا آخذ منكم شيئاً ولا أسلمه لكم، فتأثر أبوه وعمه. فلما رأى تأثرهم، قال رسول الله ﷺ لأبيه وعمه: هل لكما في خير من ذلك؟ فقالا وما هو؟ قال: آتيكم بزيد وأخيره بين البقاء معي وبين الذهاب معكم، فإن اختاركم فخذوه بدون أن أكلفكم شيئاً، وإن اختارني فلا أسلمه لكم، ولن أسلم من اختارني لأحد، فقال الأب والعم قولة واحدة: لقد أنصفتنا، وأحسننا إلينا. فأحضره رسول الله ﷺ، وقال: يا زيد أتعرف هذين الرجلين؟ قال: نعم، هذا أبي وذاك عمي، فقال النبي ﷺ: إن شئت فاذهب مع أبيك وعمك، وإن شئت فابق معنا، فقال زيد: والله لا أختار أحداً غيرك. فقال أبوه: أتختار أن تكون عبداً على الحرية مع أهلك، فقال زيد: ما أنا بالعبد مع سيدي الكريم بل أنا فوق الأحرار، فوجم أبوه وعمه، ولكن سيدنا رسول الله ﷺ أمسك

بيد زيد بين الناس وقال: أشهدكم أن زيداً ابني أرثه ويرثني، فصار زيد يدعى بعد ذلك زيد بن محمد، فقال أهله: لك الحق يا زيد أن تختاره علينا.

فعاشر في رعاية سيدة نساء العالمين، وظل يعرف بزيد بن محمد إلى أن جاءت رسالة السماء والنبوة لسيدنا محمد ﷺ، فكان زيد وعلي بن أبي طالب أول المسلمين، وتربى زيد على المثل العليا في القوة والشجاعة والرجولة وفنون الحرب والإقدام والمروءة، فكان أول قائد يغزو دولة الروم في الشام بثلاثة آلاف رجل، وسمي بعد ذلك باسمه الأصلي، ولما نزلت الآية (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلِيَكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)، سمي زيد بن حارثة.

ولما جهز رسول الله ﷺ المقاتلين لغزوة مؤتة عين زيدا أميراً، وإن قتل فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن قتل فالأمير عبد الله بن رواحة، فماذا كان موقف زيد عندما تكاثرت الروم وزاد عددهم وأشار عليه بعض المسلمين بترك القتال والرجوع لأن القوتين غير متكافئتين في العدد والعدة، لكن القائد الملهم زيدا قال قوله المشهورة: إنما جئنا لإعلاء كلمة الله، أو الموت في سبيل الله، والتقى بالروم يحصدهم حصداً حتى استشهد وسجل تاريخاً مشرفاً ومجداً عظيماً. ذلك هو الشهيد زيد الذي تربى في مدرسة النبوة وفي كنف رسول الله ﷺ، وفي بيت المصطفى.

ولقد غرس زيد في ابنه أسامة هذه الأخلاق الحميدة، الرجولة والشجاعة والإباء، فكان أن ترعرع أسامة بن زيد على نفس منهج أبيه، وأكرمه الله بنشأة حسنة فولاه النبي ﷺ بعد أن وثق به قيادة الجيش الذي يحارب الروم، وهو ما يزال في السابعة عشرة من عمره فكان القائد الهمام الذي اعتز به الإسلام، وأدخل الرعب في قلوب المرتدين من جزيرة العرب حين انتصر المسلمون على الروم، وهكذا استفاد من مدرسة الإقدام التي عاشها في رحاب النبوة إنه أسامة بن زيد الذي تربى أبوه وأمه في بيت رسول الله ﷺ" (١).

وهنا يمكن أن نستخلص جوابا على هذا السؤال الخبيث الذي يثيره المغرضون: لماذا تزوج النبي ﷺ من زوجة متبناه زيد بن حارثة السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها؟

أولا: زيد ﷺ ليس ابن النبي ﷺ بل كان دعيه؛ فزيد بن حارثة تبناه النبي ﷺ ثم ألغى الله التبني وحرّمه، فلم يعد زيد ابنا للنبي ﷺ لا حقيقة ولا ادعاء، قال الله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) [الأحزاب: ٤٠]، وقال: (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) [الأحزاب: ٤].

ثانيا: السيدة زينب حين تزوجها الرسول ﷺ كانت مطلقة زيد دعيه، ولم تكن زوجته؛ فهي مُطلّقة دعيه، وليست زوجة ابنه.

(١) السيدة خديجة سيدة في قلب المصطفى ﷺ د. محمد عبده يماني (ص ٩٨ - ١٠٠).

ثالثا: الرسول ﷺ لم يتزوج السيدة زينب من عند نفسه، ولكن الذي زوّجها للنبي هو الله عز وجل بدليل قوله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) [الأحزاب: ٣٧].

رابعا: العلة في الزواج هي كما قال الله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) [الأحزاب: ٣٧]، ففي الزواج علة تشريعية، وهي: إلغاء عادة التبني وكل ما يترتب عليها من آثار؛ قال الله تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) [الأحزاب: ٥].

خامسا: السيدة زينب بنت جحش كانت ابنة عمّة النبي ﷺ وكان يعرفها من قبل أن يُفرض الحجاب، ولو أراد زواجها من قبل لفعل، وهو الذي زوّجها لزيد، وكان زيد يريد أن يطلقها فيقول له النبي ﷺ: (أمسك عليك زوجك واتق الله)، قال تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) [الأحزاب: ٣٧].

وقد يقول قائل: ولماذا لم تنزل آية بتحريم التبني وينتهي الأمر عند ذلك؟ **والجواب:** أن التبني كان من تقاليد العرب المتأصلة فيهم التي يصعب هدمها، فاحتاجت مع القول إلى العمل؛ حتى يزيل أي حرج في نفوس الناس بعد ذلك، ومن المعلوم أن العمل له تأثير كبير ربما يفوق القول؛ ومما يشهد لذلك أن النبي - ﷺ - لما أمر الصحابة في صلح الحديبية بنحر هديهم وحلاقة شعرهم والتحلل من العمرة، لم يقم أحد لامتثال أمره، فلما قام

ونحر هديه ولم يكلم أحداً، بادروا فنحروا وتحللوا، وهذا يدل على تأثير الفعل والعمل في النفوس، فلا يستحي مسلم أبداً أن يفعل شيئاً فعله أكرم الخلق الرسول محمد أسوتنا وقدوتنا ومعلمنا ﷺ (١).

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٦/١١)، والقصة بكاملها في صحيح البخاري برقم (٢٥٢٩).

المبحث الثالث

الحالة المادية للرسول ﷺ في ضوء قول الله تعالى: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى)

كانت لبني هاشم - والتي منها النبي ﷺ - زعامة قريش في مكة، وقريش أوسط قبائل العرب، وأفضلها نسبا، وبنو هاشم كان فيهم الغني الموسر، وفيهم من هو دون ذلك.

وأما النبي ﷺ فلم يكن معدودا من الأغنياء أصحاب الأموال، ومع ذلك لم يخطئ من نفى عنه الفقر الذي هو الحاجة إلى الخلق، فقد أغناه الله تعالى من فضله.

وقد تعرض د. محمد عبده يماني لهذه المسألة، فيقول رحمه الله:

"في تفسير سورة الضحى: في هذا المقام نجد الزمخشري يقول عند تفسيره لقوله تعالى: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) (ووجدك عائلاً): فقيراً، وقرىء عيلاً، كما قرئ: عديماً، (فأغنى) فأغناك بمال خديجة، أو بما أفاء عليك من الغنائم. وكذلك يقول الإمام القرطبي يقول: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) أي: أغناك بخديجة رضي الله عنها. ومن أجل ذلك كله كافأها رسول الله ﷺ، وجازاها على إحسانها إليه في حياتها بأن لم يتزوج عليها غيرها، وبلغت منه مبلغاً لم تبلغه امرأة

قط من زوجاته بعدها، وكافأها الله بأن جعلها دون كل نسائه أم ذريته وجدة عترته" (١).

لكن هنا مسألة تحتاج إلى توضيح، وهي: هل كان النبي ﷺ فقيراً أم غنياً؟

يقول الإمام تاج الدين السُّبُكِي في طبقات الشافعية: "وسماعي مرات كثيرات من الشيخ الإمام الوالد رحمه الله - وهو معتقدي - أنه ﷺ لم يكن فقيراً قط، ولا كانت حالته حالة الفقراء، بل كان أغنى الناس بالله، وكان الله تعالى قد كافاه أمر دنياه في نفسه وعياله ومعاشه، وأحفظ أن الشيخ الإمام - رحمه الله - أقام من مجلسه من قال: كان النبي ﷺ فقيراً، قياماً صعباً، وكاد يسطوبه، وما نجاه منه إلا أنه استتابه واستسلمه، وكان - رحمه الله - يقول في قوله ﷺ: (اللهم أحييني مسكيناً) إن المراد به استكانة القلب لا المسكنة التي هي أن يجد ما لا يقع موقعا من كفايته، وكان - رحمه الله - يشدد النكير على من يعتقد ذلك. والحق معه، فما كان ﷺ فقيراً من المال قط ولا مسكيناً. نعم كان أعظم الناس جواراً إلى ربه، وخضوعاً له، وأشدهم في إظهار الافتقار إليه، والتمسكن بين يديه" اهـ.

ونفي الفقر عن النبي ﷺ باعتبار الغالب، وهذا لا يتعارض مع كونه قد يجوع أحياناً ويستسلف؛ لكونه ينفق ما عنده في الجهاد، وعلى فقراء المسلمين، ثم لا يلبث ربه عز وجل أن يفتح عليه من رزقه وفضله، فيغنيه؛ ولذلك قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) [الضحى: ٨] قال: أي: كنت فقيراً ذا عيال،

(١) السيدة خديجة سيدة في قلب المصطفى ﷺ د. محمد عبده يماني (ص ٧١).

فأغناك الله عن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر والغني الشاكر. اهـ.

وعليه: فإنه لا يجوز القول بأنه ﷺ كان فقيراً إن قصد به التنقيص من النبي ﷺ ويؤدب قائله، فقد جاء في التاج والإكليل: "قال مالك في رجل عيره رجل بالفقر، فقال: أتعيرني بالفقر وقد رعى النبي ﷺ الغنم، فقال مالك: عرض بذكر النبي ﷺ في غير موضعه أرى أن يؤدب". أ هـ.

ثم إن النبي ﷺ لم يكن فقيراً من ناحية الواقع، فقد امتن الله عليه بقوله: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) [الضحى: ٨].

وقد كان من أدعيته ﷺ المأثورة: اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى. رواه مسلم وغيره.

ولا يعارض هذا الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه في سننه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: (اللهم أحيني مسكيناً وأمّتي مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين) فالمسكنة في دعائه ﷺ إنما تعني: الذلة والافتقار إلى الله، إرشاداً لأُمَّته إلى استشعار التواضع والاحتراز عن الكبر والنخوة.

وحول هذا المعنى يقول المباركفوري في شرح الترمذي: "فأراد ﷺ بذلك إظهار تواضعه وافتقاره إلى ربه إرشاداً لأُمَّته إلى استشعار التواضع والاحتراز عن الكبر والنخوة، وأراد بذلك التنبيه على علو درجات المساكين وقربهم من الله تعالى".

قال العلامة الألوسي في تفسيره روح المعاني: "قوله تعالى: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى): على نمط سابق، والعائل المفتقر، من عال يعيل عيلا وعية وعيولا ومعिला: افتقر. أي وجدك عديم المقتنيات، فأغنأك بما حصل لك من ربح التجارة، وذلك في سفره مع ﷺ إلى الشام، وبما وهبته لك خديجة رضي الله تعالى عنها من المال، وكانت ذا مال كثير. فلما تزوجها عليه الصلاة والسلام، وهبته جميعه له ﷺ؛ لئلا يقول قائل ما يثقل على سمعه الشريف عليه الصلاة والسلام. وبمال أبي بكر الصديق ﷺ وكان أيضا ذا مال، فأتى به كله رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: (ما تركت لعيالك)؟ فقال: تركت الله تعالى ورسوله ﷺ، وقيل: بما أفاء عليك من الغنائم، وفيه أن السورة مكية، والغنائم إنما كانت بعد الهجرة. وقيل: المراد قنعمك وأغنى قلبك؛ فإن غنى القلب هو الغنى. وقد قيل: من عدم القناعة لم يفده المال غنى، وقيل: أغنأك به عز وجل عما سواه، وهذا الغنى بالافتقار إليه تعالى" (١).

وقد أغناه سبحانه بجميع أنواع الغنى، وأعظم ذلك غنى النفس، فقد كان ﷺ أغنى الناس نفسا، وأقنعهم بما آتاه الله تعالى، كما أغناه بمال زوجه خديجة، ثم بما ملكه من حقه في الفياء ﷺ، ولو شاء ﷺ أن تكون له الجبال ذهباً لفعل الله له ذلك، ولكنه أبي إلا أن يبذل ما جاءه من الدنيا في مرضات الله تعالى، ولا يبقى منها لنفسه وأهله إلا قدر كفايتهم.

(١) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي (٣٨٢/١٥).

ولذا فمع أن له الحق في الخمس - وليس هو بالقليل - فقد مات
ودرعه ﷺ مرهونة عند يهودي في صاع من شعير، كما ثبت في
الصحيح، وذلك كله لأنه كان يبذل ما يأتيه من الدنيا في مرضات الله
تعالى، ويقنع بالكفاف ويرضى لنفسه ولأهله باليسير صلوات الله
وسلامه عليه.

المبحث الرابع

شبهة زواج النبي ﷺ بالسيدة خديجة لمالها

ادعى البعض أن النبي ﷺ تزوج السيدة خديجة رضي الله عنها من أجل أموالها، والتي استخدمها في استئجار الصحابة لنشر الإسلام. وعن هذه القضية التي يحاول بعض المغرضين من المستشرقين الغمز واللمز بها، وهي أنه ﷺ إنما تزوجها لمالها كانت هذه الدراسة التي قام د. محمد عبده يماني من دراسة الشبهة والرد عليها، فقال:

"لماذا تزوج رسول الله ﷺ بخديجة بنت خويلد؟ هذا سؤال يردده كثير من الناس، على الرغم من أنها أكبر منه سناً، وعلى الرغم من وجود عشرات الفتيات في قريش وغيرها من القبائل، وكلهن حريصات على الزواج به ﷺ فلماذا آثر الزواج بخديجة، ولماذا أقبل عليها وقبل بها، وبعض الناس يسألون هذا السؤال في براءة ورغبة صادقة في معرفة الحقيقة، والبعض يثير هذا السؤال في خبث وغمز ولمز، وخاصة عندما يثار هذا السؤال من قبل بعض المستشرقين المغرضين، والذين يجنحون إلى إتهام الرسول ﷺ بأنه إنما تزوج بالسيدة خديجة طمعاً في مالها، ودعونا الآن نناقش هذا الموضوع بموضوعية ونضع الحقائق أمامنا واضحة.

أولاً: إن هذا الزواج كان اختياراً ربانياً، فالله عز وجل بعلمه وقدره السابق اختار السيدة خديجة لتكون بجوار رسول الله ﷺ، فهذا الزواج هو بقدر الله قبل كل شيء.

ثانياً: إن المتتبع للحوادث التاريخية والإرهاصات التي سبقت هذا الزواج يلاحظ أنه ﷺ لم يسع ولم يذهب إلى السيدة خديجة، وإنما هي التي سعت إليه ورغبت في التعرف عليه والزواج به، وقد حرصت في أول الأمر على أن تربطها به علاقة عمل وتجارة فزاد إعجابها به، ومعرفتها بفضله وأمانته وسمعته، وما أحاط بتلك الرحلة من أخبار وكرامات وما جرى فيها من أحداث دلت على فضله ونبله وخصوصيته. ولهذا فقد زاد إعجابها وتعلقها به وحرصها على الاقتراب منه، والارتباط به فكان أن أرسلت إليه، وهي التي خطبته وبادرت إلى الاتصال به وعرض نفسها عليه.

ثالثاً: عندما علم الرسول ﷺ برغبة السيدة خديجة وأنها حريصة على الزواج به، وهي من هي من النساء المعروفات بالفضل والخلق والنسب الطيب والجمال والكمال، وهي ذات أصل وفضل وحسب ونسب ومكانة بين قومها، مع ما عرف عنها من عقل راجح وحكمة ومكانة عالية بين الناس، فعندما نظر الله إلى كل هذه الأمور ووازن بينها، وجد أنها ستكون السيدة المناسبة لمثله، ولهذا فقد قبل العرض ورضي عندما علم برغبتها في الزواج به، وشاور أهله وهم من أشرف القوم وكبارهم، فأيدوه وشجعوه، لأن الاختيار كان اختياراً سليماً موفقاً، ولهذا تقدم لخطبتها بأمر الله أولاً وأخيراً، ولما عرف عنها من صفات حميدة، ولهذا تزوجها، فكان لها رضي الله عنها ذلك الشأن العظيم في حياته وفي دعوته، حتى أظهر الله دينه، ونصر رسوله ﷺ، فكانت نعم الرفيقة، ونعم الزوجة، ونعم الناصرة له، رضي الله عنها وأرضاها.

رابعاً: أما عن القضية التي يحاول بعض المغرضين من المستشرقين الغمز واللمز بها، وهي أنه ﷺ إنما تزوجها لمالها، فالحقيقة هي أنه نشأ نشأة كريمة عفيفة زاهداً في المال، أميناً على كل ما يقع في يده، ومن زهده الذي ينفي أنه إنما قبل الزواج من السيدة خديجة لمالها هي تلك الحوادث والروايات الصحيحة التي رويت عن قريش عندما ضاقوا بدعوته وأرادوا أن يصرفوه عنها فعرضوا عليه المال والجاه.

ودعونا ننظر إلى النص هنا بعمق عندما عظم على أبي طالب فراق قومه، ولم يطب نفساً بأن يخذل رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا فابق علي وعلى نفسك، ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله أن عمه خاذله، وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال له: "يا عم! والله! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى، أو أهلك فيه ما تركته" ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي فأقبل عليه فقال: اذهب يا ابن أخي! فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك.

ومن ينظر في هذا النص يلاحظ سمو خلقه وعفته وزهده في المال، ولو كان يرغب مالاً لقبول هذا العرض فهذا أفضل من أن يأخذه عن طريق السيدة خديجة لأنه عرض عليه من أكابر قريش، وقادتها ورجالها، وعرض معه الجاه ولكنه رفض ذلك ﷺ.

ولهذا فإن من يحاول الغمز في قضية زواج الرسول ﷺ وهو أن الزواج إنما كان طمعاً في مالها فهذا رد واضح عليه، وحياة الرسول صورة مشرقة واضحة، وكل ممارساته وعفته ترد هذه الاتهامات إلى أصحابها وتنفيها عنه.

بأبي أنت وأمي يارسول الله، أي طمع أو رغبة في مال أو جاه، وإنما كان يتحرك بأمر الله ويدعو إلى كلمة الله. ويجاهد ويصبر ويحتسب حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلي.

إذا أردنا أن نعدد ما حبا به الله رسوله مما أغناه به عن جميع الأموال نرى أنه:

أولاً: خيره بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختر أن يكون عبداً رسولاً، فهذا فضل ﷺ حالة العبودية.

ثانياً: أنه لما آلت إليه أموال بني النضير وبني قريظة ونفائس مدخراتهم من حلي ومتاع خالصة له لم تغير من سيرته في المال، وخاصة بعد تتوق الزوجات إلى ذلك حيث أرهقته بالإلحاح والطلب للتوسع في النفقات والمتاع، فشق عليه ذلك، فأنزل الله في ذلك، تخييرهن في قوله تعالى: (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كننَّ تُردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتكُنَّ وأسرحكن سراماً جميلاً وان كنش تُردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً). ثم آلت إليه أموال هوازن وثقيف، وهي أكبر غنيمة غنمها المسلمون فقسمها كلها على البر والفاجر والمسلم

والكافر ثم قال بعد إلحاحهم في الطلب: يا أيها الناس، والله لو كان لكم عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، وما ألفتُموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً، ثم أخذ وبرة من سنام بغيره فرفعها، وقال: والله مالي من فيتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم.

ثالثاً: ثم إنه ﷺ راودته الجبال أن تتحول له ذهباً فأبى ذلك لزهادته في الدنيا وزينتها، وعاش عيشة الكفاف حتى إنه ارتحل إلى الرقيق الأعلى ودرعه مرهونة في نفقة عياله، ولم يورث درهماً ولا ديناراً.

وإذا نظرنا بعمق في هذه المسألة وجدنا أن الزعم الذي زعمه المستشرقون بأن زواج الرسول ﷺ من خديجة كان الغرض منه هو الحصول على ثروتها، أو طمعاً في الاستفادة من مالها ما هو إلا طعن في رسول الله، وفي رسالة الإسلام السمحاء حقداً وحسداً، كما هي عادتهم وهو باطل وكذب وافتراء.

ولا يفتر أعداء الإسلام في إلصاق الأباطيل والتهم برسول الله ﷺ وبالإسلام من غير إثبات ولا دليل ولا قرينة تدل على صدق الدعوى. وهم ماديون لا يؤمنون بالمعجزات ولا بالكرامات التي يتولى الله بها أوليائه الذين خصهم واصطفاهم مثل مريم بنت عمران التي كانت (كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أُنَى لِكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ). وحديث الرسول ﷺ (إنما أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني...) الحديث. وقول الشاعر: ومن يعترض والعلم عنه بمعزل يرى النقص في عين الكمال ولا يدري. وهم كما قال الله عنهم

أنهم (لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية)، (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ) وقصد المستشرقون أيضاً من وراء هذه المزاعم تشويه الإسلام والنيل من رسول الله ﷺ " (١).

ويتلخص الردُّ على أن النبي تزوج السيدة خديجة رضي الله عنها لمالها وراثتها فيما يلي:

أولاً: ما تذكره الروايات أن السيدة خديجة هي التي سَعَتْ إلى الزواج من النبي ﷺ - رغم كثرة خطَّابها - ووسَّطت في ذلك صديقتها نفيسة بنت منبه، وكان سبب رغبتها في الزواج منه حسنُ أخلاقه وأمانته، والبركة العظيمة التي أحاطت به.

ثانياً: أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - لم تكن مجرد امرأة ثرية فقط؛ بل إنها قد اشتهرت بحسن خلقها وذكائها ورجاحة عقلها ونسبها الشريف ومكانتها الرفيعة في قريش؛ ولذلك كان الكثير من رجال مكة يتمنَّون الزواج منها.

ثالثاً: لم يكن زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها رغبة في مالها كما يدَّعي بعض المفترين، بدليل أن النبي ﷺ أصدَقها عشرين بَكْرَةً، وهي الناقة الفتية، وهذا خير أموال العرب، وقد كان النبي ﷺ يعمل في مالها ويُتاجر لها فيه فيُحَقِّق أرباحاً يأخذ منها نصيباً يقابل ما بذله من العمل والجهد، وفي هذا مصلحة كبيرة لخديجة رضي الله عنها حيث كانت تحقِّق أرباحاً كبيرة وتجد في

(١) السيدة خديجة سيدة في قلب المصطفى ﷺ د. محمد عبده يماني (ص ٧٣-٧٧).

مالها بركة كبيرة، خصوصًا مع الأمانة الشديدة والكفاءة العالية التي تميز بها النبي ﷺ وشهد له بها الكثيرون، ومنهم ميسرة غلامٌ خديجة رضي الله عنها (١).

(١) مختصر سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون (ص ٤٣)

المبحث الخامس

الإحتفال بالمولد النبوي، مشروعيته ومظاهره

إن الإحتفال بميلاد النبي ﷺ تعظيم واحتفاء بالجانب النبوي الشريف، وهو عنوان محبته التي هي ركن من أركان الإيمان، فالإحتفال بميلاده ﷺ جائز شرعاً، وهو من سبل إظهار المحبة لرسول الله ﷺ، كما أن حضور مجالس مدح الرسول ﷺ مرغّب فيها شرعاً، لأن فيها من الخير الواضح ما لا يخفى على أدنى متأمل ومنصف، وفيها شدّ القلوب إلى محبته ﷺ وتعظيمه وتوقيره، وتذكير الناس بسيرته الطاهرة، ومحبته وتعظيمه وتوقيره واجب شرعاً والوسائل لها أحكام المقاصد.

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي: (محبّة النبي ﷺ من أصول الإيمان، وهي مقارنة لمحبة الله عز وجل، وقد قرنها الله بها، وتوّعّد من قدّم عليهما محبّة شيء من الأمور المحبّبة طبعاً).

إن المراد من الإحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، أن تجمع الناس على الذكر، والإنشاد في مدحه والثناء عليه، وإطعام الطعام صدقة لله، والصيام والقيام، إعلاناً لمحبة النبي ﷺ، وإعلاناً للفرح بيوم مجيئه الكريم إلى الدنيا، فميلاده ﷺ كان ميلاداً للحياة (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا) [يونس: ٥٨].

وقد درجت الأمة الإسلامية منذ القرن الرابع والخامس من غير تكبير على الإحتفال بمولد الرسول بإحياء ليلة المولد بشتى أنواع القربات من إطعام الطعام والصيام والقيام وتلاوة القرآن والأذكار وإنشاد الأشعار والمدائح في رسول الله ﷺ، كما نص على ذلك

المؤرخون، وجاءت روايات كثيرة أن الصحابة رضی الله عنهم كانوا يمدحون النبي ﷺ في الشعر.

يجب علينا أن نهتدي بهديه ﷺ ونتحلى بأخلاقه الكريمة التي نحن في أمس الحاجة إليها اليوم، ونستلهم من سيرته العطرة ما يعيننا على العبور بسلام من تلك المرحلة الدقيقة في تاريخنا، ونتلمس من سبل الهداية في منهجه الحكيم ما يعالج مشكلات واقعنا وقضايانا المعاصرة، وبيان موقف الإسلام من الجرائم التي ترتكب من بعض ممن ينتسبون إليه، وبراءته من كل ما يهدد أمن وأمان البشرية جمعاء وليس المسلمين فقط.

إن فضل الأيام بفضل ما تشتمل عليه من الأحداث العظام، فالزمن وعاء الحدث والحدث مرتبط بالزمن في بداهة ونهايته ودوامه، والزمن يسمى بما يحدث فيه من خير أو شر، وإذا مرت الأزمان بلا أحداث، كانت كأن لم تكن شيئاً يذكر.

ولا شك أن ميلاد المصطفى ﷺ من أعظم الأحداث، لأن ما بعده من الأحداث والنعم والبركات كلها متوقفة عليه، ولأنه يوم مولد الهدى الذي يهتدي به الحائرين والنور الذي يبدد الظلمات والحق الذي يدمغ الباطل، يوم طال انتظاره وترقبه لإصلاح ما أفسدته غرائز الإنسان وشهواته، فيوم ميلاد خاتم النبيين له بركته وفضله على سائر الأيام، عرف النبي ﷺ فضله فاخصه بالصيام احتفالاً واحتفاءً بهذا اليوم المبارك وشكراً لله على نعمته وفضله عليه، فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: "ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت فيه، وأنزل على فيه"، فهو يوم احتفل به الكون كله استبشاراً بسطوع نور الحق على يد سيد الخلق، مشيراً إلى أن كل مسلم له أن يحتفل بهذا اليوم المبارك.

ولا بد أن يكون الاحتفال من جنس شكر النعمة التي أنعم الله بها علينا في هذا اليوم، فنكون أحرص على معرفة قدره ﷺ، وصفاته والتخلق بأخلاقه لأنه بعث متمما مكارم الاخلاق، وكذا بالحرص على اتباع سنته ﷺ وعدم مخالفتها.

وقد نصَّ جمهور العلماء على أنه يُنَدَّبُ تعظيم يوم ميلاد النبي ﷺ وإبراز الشكر له؛ وذلك بصيامه والإكثار من الذكر والدعاء والعبادة وقراءة القرآن ونحو ذلك من مظاهر الشكر والتعبد لله احتفاءً بمولده الشريف ﷺ، وهو ما جرى عليه عمل أهل الأمصار.

ولما كان شغل د. محمد عبده يماني الشاغل وقضيته التي عاش من أجلها نشر الوعي بالسيرة النبوية ومحبة صاحبها ﷺ واتباعه نجده في أكثر كتبه ينادي بأهمية وضرورة الأخذ بقلوب النشئ نحو محبة رسول الله ﷺ فيقول:

"من واجب المسلمين في كل زمان ومكان أن يحتفوا برسول الله ﷺ الاحتفاء الذي يليق به وبِعَظِيمِ قدره ﷺ ومكانته، ويكفيينا في ذلك أمر الله سبحانه وتعالى الذي قرن محبته عز وجل باتباع هذا النبي الكريم ﷺ، فجعل محبة العبد لله عز وجل مشروطة باتباع الرسول ﷺ، ومحبة الله عز وجل لعبده ومغفرته لذنوبه نتيجة لاتباع الرسول ﷺ كما قال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) [آل عمران: ٣١].

والاحتفاء برسول الله ﷺ يحتاج إلى ربط الإنسان المسلم بهذه السيرة العطرة وطاعته للرسول ﷺ (من يطع الرسول فقد أطاع الله) [النساء: ٨٠]، ويقول الله عز وجل: (وأطيعوا الله والرسول لعلكم

ترحمون) [آل عمران: ١٣٢]، فسبحان من جعل طاعته ﷺ مقرونة بطاعته عز وجل (قل أطيعوا الله والرسول) [آل عمران: ٣٢].

ومن هنا تأتي أهمية الاحتفاء بسيدنا رسول الله ﷺ وطاعته والسير على هديه واقتفاء سنته في أقوالنا وأفعالنا.

ولا شك أن تتبع السيرة النبوية والحرص على تجسيد حياته ﷺ وجعله القدوة لنا في كل أمورنا هو أول طريق النجاح، فنحن نؤمن به ﷺ مع إيماننا بالله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) [النساء: ١٣٦]، (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) [الحديد: ٧]، (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ) [الأعراف: ١٥٨].

وجاءت الآية التالية تدلنا على طريق النجاة من عذاب الله وتأخذ بأيدينا نحو تجارة رابحة وفوز عظيم حيث يقول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُحِبُّكُمْ مِنْ عَذَابٍ إِلَيْهِ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) [الصف: ١٠].

ومن أول مظاهر الاحتفاء برسول الله ﷺ: كثرة الصلاة والسلام عليه ﷺ، فهما من أروع ما يجعلنا على اتصال دائم بهذا النبي الكريم، والله سبحانه وتعالى قد أمرنا وعلمنا كيف نصلي عليه، وبدأ هذا الأمر بنفسه فقال عز من قائل: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ نعمة عظمى أكرم الله بها هذه الأمة ينتفع بها العبد الذي يصلي عليه ﷺ، لأننا عندما تصلي عليه ﷺ صلاة يصلي الله سبحانه وتعالى علينا عشرا، كما جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه (من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشرا) فالصلاة على الرسول ﷺ سبب في صلاة الله على المصلي عليه، ويكون ذلك سببا في نزول الرحمة، ونزول الرحمة هي خير وبركة، لأنها باب من أبواب رحمة الله، يخرجنا بها من الظلمات إلى النور، ومن الظلام إلى الهدى، وقد قال الله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [الأحزاب: ٤٣].

فلننظر هنا ببصيرة إلى عظمة قدر الاحتفاء برسول الله ﷺ عندما نصلي عليه فتحصل لنا كل هذه الخيرات والفضائل، ويمنن الله علينا بصلاة تخرجنا من الظلمات إلى النور، وتحقق لنا الرحمة منه عز وجل بواسطة صلاتنا على المصطفى ﷺ، وصدق ﷺ عندما يقول: (يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة)، والله سبحانه وتعالى قال في صفته وصفة رسالته ﷺ (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: ١٠٧]، وسبحان من جعل حياته رحمة لنا، ومماته ﷺ رحمة، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: (حياتي خير لكم، تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم، تعرض على أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم).

ومن هنا نجني الثمرة العظمى من الاحتفاء به ﷺ من كثرة الصلاة عليه ﷺ بآدابها وحقها وسلوكها، وأول هذه الآداب التمسك

بسنته، والسير على هداه، وجعل سيرته ﷺ النبراس الذي يستضيء به العبد، ويجعله ﷺ القدوة الحسنة التي يجب أن تقتدى في كل شيء في جميع أموره في الحياة الدنيا وفي الآخرة (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) (١).

الصلاة على النبي ﷺ هي من أعظم العبادات التي يمكن للمسلم أن يؤديها، وهي من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "أَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ، فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ"، والصلاة على النبي ﷺ لها فضل كبير في الدنيا والآخرة، ومن أهم فضائلها:

ترفع الدرجات: فقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطَايَا، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ".

تكفر الذنوب: قد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً فَإِنَّهَا تَكُونُ لَهُ صَدَقَةً".

تقرب من الله تعالى: فقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ".

تنجي من عذاب القبر: فقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً فَإِنَّهَا تَكُونُ لَهُ نُورًا يَنُورُ بِهِ قَبْرُهُ".

(١) بأبي أنت وأمي يا رسول الله (١٠٠-١٠٢)

تُدخل الجنة: فقد ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال:
 "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً، لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَرَى مَقْعَهُ فِي الْجَنَّةِ".

ولذلك يجب على المسلم أن يحرص على الصلاة على النبي ﷺ في كل وقت، وأن يكثر منها في الأوقات المباركة، مثل يوم الجمعة، وشهر رمضان، وليلة القدر.

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الجزء الثالث والأخير من دراسة نقبت فيها في كتابات المفكر الإسلامي الكبير د. محمد عبده يماني، مستخرجا إشارات، وما من الله به عليه من إشراقات حول بعض معاني آيات القرآن الكريم، والتي غاص فيها مبرزا علاج القرآن لمشكلات المجتمع والنهوض به إلى أقوم طريق.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول يندرج تحتها مجموعة من المباحث، كل فصل منها خصصته لمجموعة من القضايا والموضوعات المشتركة التي تناولها الراحل الكريم.

أسأل الله أن يرحم المفكر الكبير د. محمد عبده يماني، وأن يجعل جهاده في استخراج لآلي القرآن والسنة وتبسيطها للناس في موازين حسناته، وألا يحرمنا الأجر، وأن ينفع بهذا العمل، إنه على كل شيء قدير.

د. إبراهيم محمد إبراهيم حسانين

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق - جامعة الأزهر

٠٠٢٠١٠١٤٠٩٥٦٨٥

فهرس البحث

رقم الصفحة	العنوان	م
٢	مقدمة	١
٤	الفصل الأول: نسمات قرآنية للنبي خير البرية	٢
٥	المبحث الأول: رسول الله ﷺ بين الأصول الطاهرة والأرحام الزاكية	٣
٨	المبحث الثاني: تفضيل النبي محمد ﷺ على سائر الخلق ودلائل ذلك	٤
١١	المبحث الثالث: الصلاة على النبي ﷺ وفضلها	٥
١٤	المبحث الرابع: الوسائل النبوية في كسب قلوب البرية	٦
١٩	المبحث الخامس: الشمائل القرآنية للنبي خير البرية	٧
٢٤	الفصل الثاني: محبة الرسول ﷺ	٨
٢٥	المبحث الأول: محبة الرسول ﷺ بين الإطراء والتعظيم	٩
٢٨	المبحث الثاني: حب الصحابة للنبي ﷺ ومظاهره عندهم	٦
٣٧	المبحث الثالث: كيف تكون محبة رسول الله ﷺ	٧
٣٩	المبحث الرابع: اتباع النبي ﷺ دليل المحبة	٨
٤٤	الفصل الثالث: حديث القرآن عن بشرية الرسول ومعجزاته وغزواته.	٩
٤٥	المبحث الأول: بشرية النبي ﷺ، رسول الله ﷺ	١٠

	بشر لكنه ليس ككل البشر	
٥٦	المبحث الثاني: حديث القرآن عن معجزات الرسول ﷺ	١١
٦٠	المبحث الثالث: حديث القرآن عن غزوة بدر الكبرى	١٢
٧٨	المبحث الرابع: غزوة الأحزاب وعبقرية سيدنا علي بن أبي طالب فيها	١٣
٨٤	الفصل الرابع: قضايا وشبهات وردود	١٤
٨٥	المبحث الأول: قضية ختم النبوة وانقطاعها بعد رسول الله ﷺ بين الحقيقة والإدعاء	١٣
٩٢	دلالات ختم النبوة	١٤
٩٥	موقف البابيين والبهائيين من ختم النبوة	١٥
١٠٤	المبحث الثاني: زيد بن حارثة وقضية التبني	١٦
١١١	المبحث الثالث: الحالة المادية للرسول ﷺ في ضوء قول الله تعالى: (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى)	٢٠
١١٦	المبحث الرابع: شبهة زواج النبي ﷺ بالسيدة خديجة لمالها	٢١
١٢٣	المبحث الخامس: الإحتفال بالمولد النبوي، مشروعيته ومظاهره	٢٢
١٣٠	الخاتمة	
١٣١	الفهرس	

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ